كيف استولى الملك رتشارد على سبعة آلاف جمل محملة بالثروات

وبعد هذا النصر جاء دوق بيرغندي مع العساكر الفرنسية التي كانت لديه، واقتادها بموجب تفويض من الملك الفرنسي، الذي عينه قائداً، ورئيسا أعلى لها، والتحق بالملك رتشارد، وأعطى الملك رتشارد إلى هذا الدوق، أثناء العيد المنصرم مبلغ ثلاثين ألف دينار، على شرط أن يقف إلى جانبه باخلاص في الحرب ضد أعداء المسيح، وفي أثناء مؤتمر بينهما قررا الذهاب إلى القدس من دون توقف، وعندما وصل الملك رتشارد إلى قلعة النطرون، وبيت نوبه قرب عمواس، قدم إليه بعض البدو، وكانوا خاضعين إلى اتفاق مع الملك بأن يجلبوا له الأخبار، فأوصلوا إليه أخباراً بأن جماعة كبيرة من التجار، كانوا على طريقهم من مصر إلى القدس، مع سبعة آلاف جمل محملة بالتجارات من مختلف الأنواع، وأن هذه الجماعة تحت حراسة بعض من أشجع نخبة قوات صلاح الدين، وجيشه، وزحف الملك مع عدد صغير من الجند، لاعتراض هذه الجماعة، وعند الصهريج الأحمر فاجأها كلها، وأخذ الجمال مع أثقالها، ثم قام بسخاء بتوزيع ماناله على جيشه، وعاد بعد ذلك إلى المعسكر الآنف الذكر، وبحكمة شحن كل مدينة وقلعة بالقوات،[وجاء في هذه الآونة دوق النمسا للوفاء بنذره بالحج، بوساطة الخدمة في الجيش الصليبي، ولكي يتعبد في الأماكن التي سار عليها مخلصنا، وعندما تدبر مارشاله مقراً له لسكناه، وقام بالترتيبات اللازمة، جاء مسرعاً فارس نورماندي من حاشية الملك رتشارد، وشرع بحماقة يتبجح، وفق طرائق ذلك الشعب وعاداته، بأنه يمتلك أعظم الحقوق في تلك الأماكن، وأنها قد عينت له بحكم كونه القادم الأول، وثار خصام، ووصلت الضجة إلى مسامع الملك، الذي أظهر نفسه أنه مؤيد للنورماندي، واشتعل غضباً ضد رجال الدوق، ولم يأخذ بما حثّه عليه الرب، بالذهاب ورؤية كيف كانت الأمور تسير، بل أصدر الأوامر بتسرع ومن دون روية

بإنزال علم الدوق، الذي نصب فوق مقراته، وبرميه في الخندق، وبذلك حرم الدوق من مسكنه، فذهب وسط سخرية النورمان وإهاناتهم ليتشكى إلى الملك، لكنه لم يحصل على شيء، سوى السخرية مما زاد من آلامه، وهكذا لدى استخفاف الملك به، توجه وهو يبكي بالدعاء إلى ملك الملوك لأن ينتقم له مما لحقه من أذى، وذلك وفقاً لما كتب:« الانتقام لي، هكذا قال الرب، وأنا الذي أسدد»، وإثر هذا مالبث أن عاد الدوق إلى بلاده وهو مضطرب، وفيما بعد خجل الملك رتشارد من هذه الفعلة خجلاً عظيماً].

حول احدى النساء التي كانت صديقة للصليبيين وبشكل خاص للملك رتشارد

وعاد الملك رتشارد منتصراً مع جميع أسلابه إلى قلعة النطرون، التي تبعد ثلاثة أميال عن القدس، وحث بإلحاح كل واحد من المقدمين على الزحف، وإلقاء الحصار على القدس، طالما أنهم يمتلكون تلك الوفرة من كل شيء، أي من العتاد والمؤن، والدواب للحمولة، وذكرهم بالمنافع التي سوف تضفى عليهم في حجهم من قبل الرحمة اللاهوتية، علاوة على ذلك، كان الملك قد تشجع إلى أبعد الدرجات، من قبل امرأة متدينة، وكانت سورية من حيث البلد، وكانت قد سكنت في مدينة القدس، فقد أوصلت هذه المرأة إليه جميع أسرار المدينة، وكيف أن المسلمين كانوا مرعوبين، ومن دون معنويات، بسبب قرب وصوله، وأخبرته أيضاً أن جميع أبواب المدينة كانت مغلقة باستثناء باب اسطفان في الجانب الشمالي من المدينة، وقد نصحته أن يمركز قوات جيشه إلى جانب هذا الباب، كما أرسلت له مفتاحاً يمكن بوساطته فتح الأبواب، وعلى كل حال، إنه بعدما تقرر من قبل الجميع إلقاء الحصار على القدس، تشاور دوق بيرغندي مع الداوية والمقدمين الفرنسيين، فأقنع بنقض قراره، فقد أكدوا أن الدوق مع جميع الفرنسيين سوف يجنون

غضب الملك الفـرنسي الأعظم شـدة، إذا مـا تمكن الملك رتشـارد من الاستيلاء على مثل هذه المدينة العظيمة والواسعـة الشهرة، وما من شيء من فضل وسمعة ذلك، سوف يعزى إلى الدوق نفسه أو إلى الفرنسيين، مـع أنـه بمسـاعـدتهـم جـرى الاستـيلاء عـلى مثـل هـذه المدينة العظيمة.

كيف جرت رشوة دوق بيرغندي من قبل صلاح الدين ومغادرته للأرض المقدسة

وجـرى في الوقـت نفسـه إرسـال رسل من قبـل الدوق إلى صـلاح الدين، لكن لأية غـاية، ماضي الأحـداث ومستقبلها سـوف يري ذلك، ففي إحـدى الليـالي، عندمـا كـان الملك الانكليـزي مقيماً أمـام المعسكر المذكـور، وكـان الدوق مع أتبـاعـه في بيت نوبة، سمع جـاسـوس تابع للملك رتشارد اسمه جوموس Jumaus ، أصوات جمال ورجال وهم يتحـركـون نازلين من الجبل، فتبعهم خلسـة، فوجـد أنهم قـوم أرسلهم صـــلاح الدين إلى معسكـر الدوق، مع خمســـة جمال محملين بالـذهب والفضة والسلع التجـارية، وأقمشة حريـرية وهدايا أخرى كثيرة، وبادر الجاسوس عائداً بسرعـة إلى سيده وأخبره بجميع هذه الأوضاع ثم أخذ بعضـاً من خـدم الملك، وجلس بشكل حـذر على الطريق الذي سـوف يعـود عليه الرسل، وكمن بانتظـارهم، وعندما كـانوا عـائدين أخـذهم أسرى، وجلبهم إلى حضرة الملك، وقام أحدهم بعدما تعرض للتعذيب، بالاعتراف— وهـو مكره— بأنـه تنقّل فيما بين الدوق وبين صـــلاح الدين، وفي النهار أمـر الملك، بعدما أبعـد الرسل عن المشاهدة، بالبعث خلف الدوق، والبطريرك، ورئيس رهبان بيت لحم، وعندمـا صاروا مع بعضهم في مكان منعـزل، أدى على الفور قسماً بحضـورهم على الآثار المقدسة، بأنه جاهز مستعد، كما تم الاتفاق بينهم، ثم أكد ذلك باليمين، وقـال بأنـه هو وجيشـه على استعـداد للزحف للهجـوم على القـدس،

ومدينة باروخ، التي من دون الاستيلاء عليها من غير الممكن تتويج ملك القدس، وبعدما أقسم الملك على هذه الصورة، دعا الدوق أن يقسم من أجل الغرض نفسه، وهذا مارفض الدوق أن يفعله، مما أغضب الملك كثيراً، ودعاه على الفور باسم خائن، ولامه لتسلمه مختلف الهدايا من صلاح الدين، وكذلك بشأن الرسل السريين، والاتصالات التي قامت بينهما، وأنكر الدوق وبذل جهده للدفاع عن نفسه ضد هذه الاتهامات، فأمر الملك بالرسل الذي اعتقلهم الجاسوس فأحضروا، وأباحوا جميع أسرار الاتصالات، وأمر الملك خدمه برميهم على مرأى من الجيش كله، مع أن الجيشين كانا جاهلين أسباب هذه الوحشية، ولم يعرفوا ماالذي فعلوه، أو من أين أتوا، أما بالنسبة للدوق فقد استولى عليه الخجل، وغضب لأنه تبرهن أنه خائن، لذلك بادر بأقصى سرعة ممكنة بالمغادرة مع الجيش الفرنسي، وانطلق نحو عكا، وكان الملك مدركاً لنواياه وعارفاً بها، فأرسل رسالة إلى قادة تلك المدينة بعدم السماح لأي رجل بالدخول إليها، ولذلك أقاموا معسكرهم خارج المكان.

حول ناسك تنبأ بأن مدينة القدس لن يتم اخضاعها

وفي الليلة التي تلت مغادرة الدوق على هذه الصورة التي وصفناها، جاء إلى الملك أحد المريدين، وجلب إليه رسالة من ناسك مقدس، بأن يأتي مسرعاً لرؤيته، ونهض الملك على الفور، ومع أن الوقت كان ليلاً، ذهب نحو رجل الرب، آخذاً معه خمسمائة من الحرس، ولقد عاش رجل الرب هذا منذ وقت طويل على جبل القديس صموئيل، وكان محبيا بروح التنبؤ، فمن يوم الاستيلاء على صليب ربنا، وأخذ الأماكن المقدسة، هو لم يأكل شيئاً سوى الأعشاب، ولم يلبس شيئاً يغطيه سوى شعر لحيته الطويل، وحدق الملك لبعض الوقت بالناسك، وهو مندهش، ثم سأله ماالذي يريده منه، وفرح الرجل المقدس بوصول

الملك، وأخذه معه إلى داخل خلوته، وأزاح هناك حجرة من الجدار، وسحب من هناك صليباً خشبيا، وأمسكه بكل خشوع أمام الملك، وأوضح بأن هذا الصليب، مصنوع من دون شك من خشبة صليب ربنا، وبين أشياء كثيرة، أخبر الملك، بأنه لن يتمكن بأية طريقة من الطرق في الوقت الحالي، من الاستيلاء على تلك المنطقة، مع أنه عمل بدأب شديد، ولكي يجعل الملك أكثر استعداداً لتصديقه، أوضح له بأنه هو نفسه سوف يغادر هذه الحياة في اليوم السابع من ذلك التاريخ، ولكي يتمكن الملك من الوقوف على برهان على صحة كلماته، أخذ الناسك معه إلى المعسكر، وحدث أنه كما قال سلفاً، فمات في اليوم السابع.

الموت التعيس لدوق بيرغندي

وفي اليوم التالي لوقوع هذه الأحداث، نقل الملك معسكره، وسار عائداً على طريق دوق بيرغندي ونصب معسكره على مقربة من ذلك المقدم، خارج مدينة عكا، غير أنه ماكاد يرتاح مع جيشه لمدة ثلاثة أيام، حتى وصله انذار على يد بعض الرسل، الذين بعثوا من يافا مع أخبار، بأن صلاح الدين، ومعه جيشه كله قد ألقى الحصار على تلك المدينة، وقالوا بأنه لن يلبث أن يستولي عليها، وأن يقتل الفرسان والعساكر المعسكرين فيها، مالم يحمل على الفور المساعدة إلى المحاصرين، ولدى تلقي هذه الأخبار انزعج الجيش الصليبي كله انزعاجاً كبيراً وحزن، وكان بين الآخرين الملك رتشارد في حالة قلق عظيم، وبذل جهده وجهود الآخرين لإعادة دوق بيرغندي الغاضب لعقد اتفاق وتصالح، ورجاه بالحاح ليقدم له مساعدته للحيلولة دون وقوع مثل هذه المأساة الكبيرة، وعلى كل حال تمنع ذلك المقدم عن الإصغاء إلى وساطتهم، ولأنه لم يرغب أن ينزعج بمطالبهم، انطلق مع أتباعه نحو مدينة صور، إنما فور وصوله إلى هناك حلت به مصيبة من الرب، وأصبح مجنوناً،

وأنهى حياته بموت تعيس.

كيف أرغم الملك رتشارد صلاح الدين على رفع الحصار عن يافا

بعد وفاة دوق بيرغندي، أقلع الملك رتشارد على ظهر سفن حربية، مع قوة صغيرة، وأسرع نحو يافا لتقديم المساعدة إلى المحاصرين، لكن بسبب عنف الرياح وشدة هيجان البحر دفعت سفنه بشكل معاكس نحو قبرص، ولدى رؤية سكان عكا ذلك خيل إليهم أنه كان عائداً إلى وطنه، لكن الملك شق طريقه على الرغم من شدة الرياح، بوساطة التجذيف القوي، وعند انبلاج الفجر في اليوم الثالث وصلوا إلى يافا، لكن ثلاثة سفن فقط، وحدث في الوقت نفسه أن تمكن صلاح الدين، بعد حملات متوالية، من الاستيلاء على المدينة، وقتل جميع العساكر المعاقين والجرحى، وهم الذين بقيوا هناك بسبب ضعفهم، غير أن خمسة منهم، وكانوا أشجع من البقية، وكان رتشارد قد تركهم مسؤولين عن المدينة، تركوا الآن المدينة، وحملوا أنفسهم إلى القلعة، حيث وجدوا الناس هناك يتناقشون حول تسليم القلعة قبل إرغامهم على فعل ذلك بهجمات الأعداء، وكانوا على وشك فعل ذلك، لولا أن تمّ توجيههم من قبل البطريرك، الذي مُنح أمانا للتنقل بين الجيشين، ذلك أن جند جيش صلاح الدين، كانوا يريدون الانتقام لموت رفاقهم وأقربائهم، الذين أعدمهم الملك رتشارد بلا رحمة في أماكن كثيرة، وقد أقسموا على قتلهم جميعاً، وذلك دون مراعاة لمنح صلاح الدين لهم ممراً آمنا، وأمانا بالمغادرة، وعلى هذا كانوا في خطر عظيم بمواجهة الموت، وكانوا في ريبة حول مايمكنهم فعله، مقدرين عدد أعدائهم وشدتهم، وكان عدد الموجودين هناك قليلاً، كما أنهم كانوا غير واثقين من قدوم الملك لمساعدتهم، وعندما— على كل حال— علموا بوصول الملك، أصبحوا أكثر جرأة ودافعوا عن أنفسهم بشجاعة، وعلم الملك من القتال الشديد بين كل من من المهاجمين والمحاصرين، بأن قلعة المدينة لم تسقط بعد،

فقفز برشاقة إلى البحر، وهو مسلح، وألقى بنفسه ومعه أتباعه، مثل أسود غاضبة، بين أكثف مكان لعساكر الأعداء، وشرعوا بتقطيعهم واسقاطهم من على اليمين واليسار، ولم يستطع الترك تحمل هذا الهجوم المفاجىء، واعتقدوا بأنه جلب معه جيشاً أكبر عدداً، فتخلوا عن الحصار فوراً، وحثوا الآخرين على الفرار، وأعلنوا عن الوصول غير المتوقع للملك، وكان رعبهم أثناء ذلك الفرار من غير الممكن كبحه، حتى أنهم دخلوا مدينة الرملة، وقاد صلاح الدين فرارهم طوال ذلك الوقت وهو في عربته، وبعدما ألحق الملك رتشارد هذه الهزيمة بالأعداء نصب معسكره خارج المدينة، وذلك للسرور غير المتوقع للمحاصرين.

كيف هزم الملك رتشارد مع قوة صغيرة اثنين وستين ألفاً من المسلمين عند يافا

وبعد يوم فراره، أخبر صلاح الدين، بأن الملك قد جاء مع جيش صغير فقط، وأن الذي لديه ليس أكثر من ثمانين فارساً، إلى جانب أربعمائة من رماة الزنبورك كانوا برفقته، ولدى سماع صلاح الدين بهذا غضب غضباً عظيماً من رجال جيشه، لأنهم كانوا آلافاً مؤلفة، وقد هزموا من قبل مثل هذا العدد الصغير، وبناء عليه، قام لإزعاج جيشه، باستعراضه هناك وتعداده، وأصدر أوامره الامبراطورية، بوجوب عودة اثنين وستين ألفاً منهم فوراً إلى يافا، وأسر الملك نفسه، وجلبه حياً في اليوم التالي إلى حضرته، وكان الملك هنري وجيشه مرتاحين في تلك الليلة بأمان، ولايخشون أي هجوم مفاجىء، وعند انبلاج الفجر جاء الجيش المسلم كله، وطوق بشكل كامل معسكر الملك، بشكل أن رجال الملك لم تعد تتوفر لديهم فرصة بالفرار إلى المدينة، فقد تمركزت قوة كبيرة جداً بينها وبين معسكر الملك، واستيقظ الملك وجميع قواته الصليبية بسبب ضجيجهم وأصواتهم، واعترتهم الدهشة لدى رؤيتهم لأنفسهم وقد جرى تطويقهم من كل جانب من قبل أعداء الصليب.

وأدرك الملك على كل حال مدى الخطر الكبير، فقام على الفور بتسليح نفسه، وركب ظهر حصانه وكأنه يطير بجناحين، وطرح جانبا كل الخوف من الموت، وكأنه قد تشجع بعدد الأعداء، وبث الحماس بصوته بين رجاله للقيام بالمنازله، وقام هو مع أحد عشر فارساً، كانوا وحدهم، من بقية الأعداد قد امتطوا خيولهم، بشق طريق بجرأة بين صفوف الأعداء، فبسيفه المجرد، ورمحه المسدد، وجه ضربات صاعقة، وقرع بسيفه على رؤوس أعدائه المغطاة بالخوذ، فحرر الخيول العربية من أصحابها الذين امتطوا ظهورها، ووزع هذه الخيول بين فرسانه الذين كانوا يسيرون على أقدامهم، فقام هؤلاء بامتطاء ظهورها برشاقة، وبوساطة الملك الذي قاد دوماً الطريق وكان على رأس أتباعه، فرقوا عساكر الأعداء من على جميع الأطراف، وقتلوا من دون رحمة كل الذين اعترضوا سبيلهم، وصرخ المسلمون الذين سقطوا تحت ضربات أعدائهم بأصوات مرعبة، وأسلموا أرواحهم إلى الجحيم، وتولى في هذه المعركة رماة الزنبورك زمام الأمور، وتصرفوا بشكل استحقوا به الثناء، وذلك بسبب شجاعتهم التي لامثيل لها، ولاسيما بصدهم لحملة الأعداء، وإذلالهم لجرأتهم، ولقد أشعت شجاعة الملك كثيراً، في هذه المعركة، وكذلك بالقدر نفسه أشعت مقدرة رجاله وشجاعتهم، فالآلاف المؤلفة من الأعداء التي أرغموها على الفرار، تبدو أمراً لايمكن تصديقه، لولا وجود يد ربانية قد تولت حمايتهم، لأنه من يمكنه أن يصدق أن ثمانين فارساً، كان يمكنهم هكذا التعامل بغلبة مع اثنين وستين ألفاً من الرجال والقتال معهم طوال النهار، وأمكنهم تحمل زخات من رشقات نبالهم، وضربات حرابهم، وذلك من دون أن يتراجعوا عن مواقعهم الأولى، ولو لمسافة قدم واحد، لابل أكثر من ذلك تمكنهم من تمزيق صفوف أعدائهم وتفريقهم في كل اتجاه، وإرغامهم على الفرار، وقطعاً ماكان لهم نيل هذا النصر المفرح، وغير المنتظر منهم، لولا أنهم اعتمدوا على عون الرب، واعتقدوا أنهم كانوا

تحت حماية السماء، وبعد أمد رأت شحنة يافا الشجاعة المنتصرة للملك ولأتباعه، فقام أفرادها بالإغارة بشكل مفاجىء على ساقة الأعداء، وانقضوا عليها، وبحملات متوالية من جانبهم، مع حملات الملك، أدار المسلمون ظهورهم، وهربوا بشكل فوضوي، مع خسائر كثيرة، ولجأوا إلى الآجام والكهوف لصيانة أنفسهم.

كيف وصل الجيش الصليبي لمساعدة الملك رتشارد

ووصلت في الوقت نفسه أخبار إلى رجال الجيش الذي كان الملك قد تركه في عكا، بأنه كان محاصراً من جميع الجهات في يافا، من قبل الأعداء، وأنه كان في خطر عظيم، مالم يذهبوا بكل سرعة للتفريج عنه، وألقت هذه الأخبار الرعب والكآبة في قلوب الجميع، وفكروا جميعاً بالفرار، لكن رجال الشطر الأكثر شجاعة في الجيش اجتمعوا للتداول حول فرص أن يكونوا قادرين على تقديم العون إلى الملك، ولذلك زحفوا باتفاق من الجميع إلى قيسارية، ولم يتجرأوا على التقدم مسافة أبعد خوفاً من العدو، وقد علموا هناك بالنصر غير المتوقع للملك، فغلبهم الفرح، وقدموا الشكر للرب لأنه الحافظ لهم جميعاً، ووقعت هذه المعركة أيام عيد القديس بطرس في الأغلال.

كيف قرر الملك رتشارد العودة إلى الوطن

وبعد هذا النصر الذي لانظير له، بقي الملك سبعة أسابيع في يافا، كان خلالها مريضاً مرضاً شديداً، سببه الأجواء غير الصحية، فقد حمل المرض عليه وعلى أتباعه بهجوم مدمر، وقد هلك جميع الذين أصيبوا بهذا المرض، باستثناء الملك، الذي حفظ بصحته من قبل العناية الربانية، علاوة على ذلك اكتشف الملك في تلك الآونة أن أمواله قد أصبحت قليلة جداً، بسبب العطايا الكبيرة التي وزعها باسراف بين جنوده، ووجد أن الجيش الفرنسي والآخرين الذين احتفظ بهم، بعد وفاة دوق

بيرغندي، مقابل نفقات عالية، كانوا الآن قلقين راغبين في تركه، وكذلك وجد جيشه يتناقص بالعدد، بوساطة المرض المميت، والصراعات مع الأعداء، الذين كانت أعدادهم تتزايد يوميا، ولذلك عقد مشاورات مع الداوية والاسبتارية، والمقدمين الذين كانوا معه، وأعدّ العدة للعودة إلى الوطن على الفور، مقيداً نفسه باليمين بالعودة لحصار المدينة المقدسة، فور تمكنه من تقوية جيشه، وتزويد نفسه بالمال، وبالإضافة إلى الأسباب المتقدمة من أجل مغادرته، كان السبب الأعظم ثقلاً وتأثيراً عليه، هو ماعلمه من أن أخاه جون كان يتآمر لوضع انكلترا تحت سيادته، وقد برهنت النتيجة أنه قد رغب بفعل ذلك، وبما أنه كان واضحاً أن مغادرة مثل هذا الجيش الكبير مع أمير مثل رتشارد، لايمكن إلاّ أن تعرض الذين سيبقون هناك إلى خطر عظيم، وفقدان المنطقة التي أخضعوها ، ولذلك تمت الموافقة— بناء على طلب الجيشين ومشورتهما— على عقد هدنة بين الصليبيين والمسلمين لمدة ثلاثة أعوام، تبدأ من يوم الفصح المقبل.

كيف عاد الملك رتشارد من حجه

وبناء عليه، عندما صارت سفنه في فصل الخريف جاهزة، وجميع ترتيباته قد اكتملت، أقلع الملك رتشارد مع ملكته، وأخته جوانا، ملكة صقلية ونبلائه، لعبور البحر المتوسط، وأثناء سفرهم ثارت عواصف غير معتادة، وعانوا من كثير من المصاعب في الوصول إلى اليابسه، وعاني بعضهم من جنوح سفنهم، ونجا بعضهم بعدما جنحت سفنهم، إلى الشاطىء، عراة تقريباً، مع فقدانهم لمقتنياتهم، وقليل منهم هم الذين وصلوا إلى المرسى المنشود آمنين، ووجد— على كل حال— الذين نجو من المخاطر في البحر، في كل مكان أنفسهم يتعرضون للهجوم من قبل الأعداء على الشواطىء، وقد أُسروا من قبلهم، وسُلبوا، وأرغم بعضهم على دفع فدية ثقيلة، ولم يكن هناك مكان يلجأون إليه، وكأن البر

والبحر قد تآمرا ضد الصليبيين العائدين، ومن هذا هناك برهان كاف، بأن مغادرتهم قبل انجاز هدف حجهم، لم يكن مرضياً بأي شكل من الأشكال للرب، الذي كان قد قرر بعد وقت قصير إغنائهم في تلك البلاد، بجلب أعدائهم وجعلهم خاضعتين لهم، وبمنحهم الأرض التي قاموا في سبيلها بذلك الحج المرهق، وبعد أمد قصير من غيابهم، أنهى صلاح الدين ذلك الغازي للأرض المقدسة، حياته الشريرة أثناء الصوم الكبير التالي، بموت تعيس ، ولقد قالوا بأنه لو كان حياً في تلك الأثناء، لتمكن بسهولة من الاستيلاء على الأرض المقدسة، لأن أبناء وأقرباء صلاح الدين نفسه اختلفوا فيما بينهم أنفسهم، وتصارعوا من أجل ملك أبيهم.

كيف نجا الملك المذكور من كثير من الكمائن التي نصبت له من قبل أعدائه

وبعدما تعرض الملك رتشارد مع بعض من أتباعه لزوابع شديدة لمدة ستة أسابيع، اقتربوا من سواحل المغرب، أي كانوا على بعد مسافة ابحار ثلاثة أيام من مرسيليا، حيث علم من تقارير متواترة بأن كونت سانت جايل وجميع الأمراء الآخرين، الذين كان سيسافر من خلال أراضيهم، كانوا بالاجماع يتآمرون ضده، ونصبوا في كل مكان الكمائن له، ولذلك رتب بشكل سري أن يعود عن طريق ألمانيا، وبناء عليه انطلق عائداً مع قليل من أتباعه، الذين كان من بينهم بلدوين أوف بيثيون Bethune، والمعلم فيليب، وكاهنه، وأنسلم شماسه[الذي رأى وسمع بهذه الأشياء، وأخبرنا بها]، وبعض رهبان الداوية، ونزلت هذه الجماعة في بلدة في سلافونيا اسمها غزارا Gazara، وأرسلوا من هناك على الفور رسولاً إلى أقرب قلعة يسألون السلام، ويطلبون أمانا من صاحب تلك المنطقة، الذي كان حفيداً للمركيز، وكان الملك رتشارد قد اشترى أثناء عودته من تاجر بيزي ثلاث جواهر من النوع الذي يعرف

باسم الياقوت، مقابل تسعمائة دينار، وأمر عندما كان على ظهر السفينة بوضع احدى هذه الجواهر في خاتم ذهبي، وأرسل هذا الخاتم مع الرسول المذكور إلى صاحب تلك القلعة، وعندما سأل الحاكم الرسول عن الذين طلب لهم الأمان، أخبروه بأنهم كانوا حجاجاً عائدين من القدس، وسأله الحاكم عن أسمائهم، فأجابه الرسول قائلاً:« واحد منهم اسمه بلدوين دي بيثيون، واسم الآخر هيوج، وهو تاجر قد أرسل لك هذا الخاتم»، ونظر صاحب القلعة بدقة أعظم نحو الخاتم، وقال:« هو ليس اسمه هيوج، بل الملك رتشارد»، ثم أضاف:« مع أنني أقسمت على اعتقال جميع الحجاج القادمين من تلك الجهات، وعلى عدم قبول هدية منهم، إنني مع ذلك بسبب قيمة الهدية، وكذلك بسبب المرسل، الذي شرفني كثيراً، مع أنني غريب بالنسبة له، أعيد إليه هديته، وأمنحه إذنا بحرية المغادرة»، وبهذا عاد الرسول، وأخبر الملك بجميع ماقد حدث، وخشية من هذا الاكتشاف، اشترت الجماعة خيولاً، وانطلقت في منتصف الليل بشكل سري من البلدة المتقدم ذكرها، وسارت لبعض الوقت خلال تلك المنطقة من دون معيقات، لكن ذلك الحاكم بعث بكشاف إلى أخيه سار خلفهم، ليخبره بالقيام باعتقال الملك عندما يدخل إلى أراضيه، وبناء عليه عندما وصل الملك إلى هناك، ودخل إلى المدينة التي كان يعيش فيها أخو الحاكم المتقدم ذكره، قام هذا الأخ فبعث خلف صديق موثوق لديه، اسمه روجر، وكان من الشعب النورماندي، من أهالي أرجنتون، وكان قد عاش معه عشرين سنة، وقد تزوج من حفيدته، وأمره أن يبحث بدقة في جميع البيوت التي يقيم فيها الحجاج، ووعده إذا أمكنه أن يعثر على الملك، ويتعرف عليه إما بوساطة اللغة، أو بوساطة أية شارة أخرى، بإعطائه نصف المدينة لاسيما، إذا ماعتقله، ووجد هذا الرسول الملك، بعدما بحث في أماكن إقامة الحجاج، واحداً واحداً، وبعد كثير من الخداع والمراوغة، أرغم الملك بالأخذ والرد وببكاء الباحث بصدق، على الاعتراف بشخصية، وبناء

على ذلك تقدم بالرجاء إلى الملك وهو يبكي، في أن يقوم على الفور بالفرار، وأعطاه جواداً ممتازا، وعاد بعد هذا إلى سيده، وأخبره بأن ماسمعه عن وصول الملك كان غير صحيح، بل هم بلدوين دي بيثون، ورفاقه عائدون من حجهم، وغضب سيده غضباً شديداً، وأمر باعتقالهم جميعاً، وكان الملك مع وليم دي إيستينغ Estaing وصبي كان يفهم اللغة الألمانية، قد نجا من المدينة خلسة، وبقي على الطريق لمدة ثلاثة أيام وثلاث ليالي من دون طعام، ووقتها دفعه الجوع إلى الانعطاف نحو قرية اسمها غيناشيا Gynatia، على الدانوب وليكتمل سوء حظه، كان دوق النمسا متوقفاً فيها آنذاك.

كيف جرى اعتقال الملك رتشارد

من قبل الدوق ورميه في السجن

. وهكذا وصل الملك رتشارد إلى النمسا وتوقف هناك، وبعث بالطفل إلى بلدة غيناشيا، إلى السوق ليشتري بعض الطعام إلى رفاقه الجياع، ولدى توجه الطفل نحو السوق أظهر عدة دنانير، وتصرف بعجرفة وبتبجح، ولذلك جرى اعتقاله من قبل أهل البلدة الذين سألوه من هو، فأجابهم بأنه كان خادم تاجر غني، وصل إلى تلك البلدة، بعد سفر ثلاثة أيام، وبناء عليه تركوه يذهب، فذهب خلسة إلى المقر السري للملك، ونصحه بأن يهرب على الفور، وأخبره بالذي حدث له، ولكن الملك رغب— على كل حال— بعد الذي عاناه أثناء السفر، أن يرتاح عدة أيام في البلدة المسماة أعلاه حيث كان يرسل أحيانا هذا الطفل نفسه إلى السوق العام، لشراء حاجياته، وحدث في إحدى المرات في يوم عيد القديس توماس، أن كان هذا الطفل يحمل من دون حذر قفازات سيده الملك تحت حزامه، ورآه المشرف على المنطقة، فاعتقله ثانية، وأنزل به مختلف أنواع العذاب، وضربه، وهدده بسحب لسانه وقطعه إذا لم يعترف على الفور بالحقيقة، وأخيراً أرغم الطفل بوساطة تلك الأنواع

من العذاب على إخباره بحقيقة الأمور، فبعث ذلك المشرف على الفور خبراً إلى الدوق وطوق بيت لملك، وأمره بشكل مهين أن يسلم نفسه بهدوء، ولم ينزعج الملك لدى سماعه للضجة والصراخ، ورأى أنه ليس بمقدوره الوقوف ضد مثل ذلك العدد من البرابرة، فأمر بوجوب احضار الدوق، واعداً بأنه سيسلم نفسه إليه فقط، ولدى قدوم الدوق سلمه نفسه مع سيفه، وطار الدوق فرحاً بذلك، وأخذ الملك معه بطريقة محترمة، ثم وضعه تحت حراسة جنوده، مع أوامر بوجوب حراسته بكل دقة وعناية، مع سيوف مجردة ليلاً ونهاراً.

وعلينا الآن أن لانعدّ أن هذه النازله من سوء الحظ قد نزلت من دون قرار من الرب القدير، ولم يكشف لنا، فيما إذا كان ذلك جزاء للملك على ذنوب شبابه، أو عقوبة على آثام رعيته، أو أن ذلك جاء تذكرة لهذا الملك ليتوب، وليكفر عن جريمته لدى سماعه نصيحة الملك الفرنسي ونيله مساعدته حيث حاصر والده شخصياً، أي الملك هنري عندما كان مريضاً في فراشه في مدينة مين، وصحيح أنه لم يذبحه بسيفه، لكنه أرغمه بالحملات المتوالية على ترك ذلك المكان، ومما لاشك فيه أن جميع هذه الظروف والمعطيات كانت السبب في موته.

وفي هذا العام، جرى أيضاً انتخاب سافاري Savary رئيس شمامسة نورثأمبتون أسقفاً لباث، ثم إنه ذهب إلى روما، وهناك جرى رسمه كاهنا، وفي التاسع عشر من إيلول تلقى السيامة من ألبان أسقف ألبانو.

كيف باع دوق النمسا ملك انكلترا إلى الامبراطور

عام ١١٩٣م، فيه بقي الملك رتشارد سجينا لدى دوق النمسا، حتى باعه هذا الأمير إلى الامبراطور الروماني مقابل ستين ألف باوند من الفضة، بعيار كولون، ثم إنه أمر به في يوم الثلاثاء بعد أحد السعف أن يحرس بعناية، ولكي يرغم الملك على دفع مبلغ كبير فدية لنفسه، أمر به

فأودع السجن في تريفي Treves ، وهو سجن لم يدخله أحد وخرج منه حتى ذلك الحين، وهو المكان الذي يقول عنه أرسطو في كتابه الخامس:« Bonum òest mactare parentes Intreves» ، وعنه قال في مكان آخر:

Sunt loca, Sunt gentes quibuse mactare parentes

ففي هذا المكان جرى وضع الملك تحت حراسة قوية من الجنود، والخدم، وقد رافقه هؤلاء إلى حيث ذهب مع سيوف مجردة نهاراً وليلاً، لابل حتى أنهم تابعوا الحراسة حول فراشة بحيث لم يسمحوا لأحد بالبقاء بقربه أثناء الليل، ولم تؤثر أياً من هذه الظروف على ملامح الملك حيث بدا دوماً مشرقاً ومقبولاً لدى محدثيه وشجاعاً وجريئاً في أعماله، وذلك حسبما تطلب الوقت، والمكان، والسبب، والشخص، وإلى آخرين أدع حكاية مزاحه مع حرسه، وكيف جعلهم يسكرون، وكيف انقض على أشخاصهم الضخمة عن طريق المزاح.

كيف اتهم الامبراطور الملك رتشارد بأشياء كثيرة وكيف رد الملك بحكمة عليهم .

كان الامبراطور لزمن طويل يحمل مشاعر غضب، وحقد ضد الملك، حتى أنه لم يتنازل لاستقباله في حضرته، أو حتى التحادث معه، لأنه تشكى بأن الملك قد أضرّ به وبرفاقه في مجالات كثيرة، وتظاهر بأن لديه كثيراً من التهم ضده، وأخيراً بعد وساطات عدد من الأصدقاء من وقت إلى آخر، ولاسيما راعي دير كلوني، ووليم مستشار الملك، دعا الامبراطور إلى الاجتماع: أساقفته، ودوقاته، وفرسانه، وجلب الملك إلى حضرته، وهناك اتهمه بعدة اعتداءات، أمامهم جميعا، وعدّدها وكان أولها في المقام الأول، أن الامبراطور خسر بسبب نصيحة رتشارد ومساعدته، مملكة صقلية وأبوليا، التي بموجب الحق عائدة له، إثر وفاة

الملك وليم، ولكي يحصل عليها حشد جيشاً كبيراً، وأنفق مبلغاً لانهاية له من المال، وقال بأن الملك المذكور، قد وعده بصدق بتقديم مساعدته للحصول على تلك المملكة من تانكرد، ثم تعرض لقضية ملك قبرص، الذي كان قريباً له، واتهم رتشارد، أنه خلعه بشكل غير عادل عن عرشه، وأنه سجن ذلك الملك، وأنه غزا بلاده بالقوة، وسلبه أمواله، ثم باع الجزيرة إلى أجنبي، ثم اتهمه بتدبير مقتل مركيز أوف مونتفرات، ووريثه، وأكد أنه بسبب خيانته وتآمره قد جرى قتل ذلك الرجل النبيل من قبل الحشيشية، وأنه قد أرسل هؤلاء القوم أنفسهم لقتل مولاه ملك فرنسا، الذي لم يحافظ على الاخلاص له، أثناء حجمهما معا، كما كان الاتفاق معقوداً ومؤكداً بالأيمان بينهما، واشتكى أخيراً، أنه ألقى في يافا بين الأوساخ علم قريبه، دوق النمسا، مراغمة له، وأنه أهان دوماً ألمانه في الأرض المقدسة وآذاهم بالكلام والسلوك.

وبعد توجيه هذه التهم وأمثالها من قبل الامبراطور، وقف الملك الانكليزي على الفور، وتقدم نحو وسط الاجتماع، ورد على التهم واحدة واحدة، وتكلم بشكل واضح تماما ومقنع، إلى حد أنهم نظروا إليه بإعجاب، واحترام من قبل الجميع، ولم يبق هناك أدنى شك فيه أنه لم يكن مجرماً أو مقترفاً لأي عدوان، في أذهان المستمعين إليه، لأنه برهن على ذلك بوضوح وبصدق، وبسياق كلماته، وبصدق تأكيداته، وماشابه ذلك في مناقشة القضية، وبذلك قضى على كل التهم، ولم يبتعد عن حقيقة ماقد وقع، ورفض بكل ثبات تهمة الخيانة، أو أنه كان المتآمر في قتل أي أمير، مؤكداً أنه يمكنه البرهنة على براءته بالنسبة لجميع هذه التهم، كما ينبغي على محكمة الامبراطور أن تقرر، وبعدما ترافع لوقت طويل أمام الامبراطور ونبلائه بمقدرة عظيمة حيث دفع جميع التهم، أعجب الامبراطور بفصاحته، فنهض وبعث وراء الملك ليأتي إليه، وعانقه ومنذ ذلك الحين تصرف نحوه بلطف ولين، وعامله بود عظيم،[

وجرى فيما بعد حرمان دوق النمسا كنسياً من قبل مولانا البابا مع جميع كرادلته، وعندما كان على فراش الموت، لم يقدم التكفير المتوجب، وخشية أن يتعرض للضياع، جرى تحليله من قبل أساقفته، ومات بشكل مريع].

كيف دفع الملك رتشارد غرامة مائة وأربعين ألف باوند مقابل اطلاق سراحه

وبعد هذه الأحداث، وبناء على وساطة الأصدقاء من وقت إلى آخر، جرى بحث دفع فدية الملك، واحتاج ذلك إلى وقت طويل، وكانت النتيجة في النهاية، وجوب دفع مائة وأربعين ألف مارك فضي، من عيار كولون، نقداً إلى الامبراطور، مقابل اطلاق سراحه، وأن يكون ذلك قبل الوصول إلى أية اتفاق، وتبعاً لذلك، أقسم في يوم القديس بطرس والقديس بولص الرسولين: الأساقفة والدوقات، والبارونات يمينا، أنه فور دفع الملك للمبلغ المسمى أعلاه، سوف يطلق سراحه ويمتلك الحرية في العودة إلى مملكته، وجلب أنباء هذه المعاهدة إلى انكلترا مستشار الملك، وليم أسقف إيلاي، الذي أحضر معه رسائل من مولانا الملك، وكذلك الختم الذهبي للامبراطور، وصدر على الفور قرار عن رجال العدالة الملكية، يقضي بأن يدفع جميع الأساقفة، والكهنة، والإيرلات، والبارونات، ورعاة الديرة، ورؤساء الرهبان مساهمة مقدارها ربع دخلهم في سبيل اطلاق سراح الملك، وعلاوة على ذلك أعطوا أوانيهم الذهبية والفضية من أجل ذلك العمل التقوي، ولقد أخذ جون أسقف نورويك نصف ثمن الأواني الموجودة في جميع أرجاء أسقفيته، وأعطى هذا النصف إلى الملك، وأعطت طائفة السسترشيان، التي كانت حتى ذلك الحين معفية من جميع الضرائب، جميع صوفها من أجل اطلاق سراح الملك، وفي الحقيقة مامن كنيسة، أو طائفة، أو مرتبة، أو جنس، نجا من دون أن يرغم على الدفع في سبيل اطلاق سراحه،

وظهـرت العـلامـات الدالـة على وقـوع هذه الكـارثة في المواسم غير الاعتيادية، وفي فيضانات الأنهار، والعواصف المرعبة والزوابع والأمطار ثلاث مـرات أو أربع في كل شهر، مع برق مخيف على امتـداد السنة، مما سبب نقصاً شديداً في حاصلات الفواكه والقمح.

تبرئة الملك رتشارد من تهمة قتل المركيز

وعندما كان ملك انكلترا متهماً بشكل ظـالم بقتل المركيز، بعث رسلاً إلى مقـدم الحشيشيـة يسأله أن يكتب رسـالـة إلى دوق[النمسـا] أو إلى امبراطور[ألمانيـا] حتـى يبرهن براءته، ومنه حصل الملك على الـرسـالة التاليـة:« من شيخ الجبل، إلى ليوبولد دوق النمسا، تحيـات: بما أن عدداً من ملوك وأمراء مـاراء البحر، قد اتهموا مـولانا رتشارد، ملك انكلترا، بقتل المركيـز، إنني أقسم بالله الـذي يحكم إلى الأبد، وبالشريعـة التي نؤمن بها، أن مـامن مـلامة يمكـن إلصاقهـا به، فيما يتعلق بمـوت ذلك النبيل، ولقد كان سبب موت المركيز كما يلي: كان واحد من اخوتنا قادم في مركب من أضاليا إلى منطقتنا من البـلاد، عندما دفعت عاصفة به إلى صور، حيث اعتقله المركيـز، وقتله، واستولى عـاى مقتنياته التي تكونت من مبلغ كبير من المال كان ملكه، وبعثنا برسل إلى المركيز نطلب منه أن يعيـد إلينا مال أخينا، وأن يتفق معنا حـول التعويض عن مقتله، الأمـر الذي لم يفعله، بل أهان رسلنا واتهم بمقتل أخينا رينالد صاحب صيدا، مع أننا نستطيع أن نؤكد الصـدق عن طريق بعض أصدقـائنا بأن المركيز نفسه هو الذي تدبر قتل الرجل وسرقته، ثم بعثنا إليه برسول آخر اسمه ادريس وقـد أراد رمي هذا الرجل بالبحـر، لكن رفـاقنا سـاعـدوه على مغادرة صـور، ولقد عاد على الفـور، وأخبرنا بهذه الأشياء، ورغبنا من تلك الساعة بموت المركيز، وبناء عليه بعثنا باثنين من إخواننا إلى صور، وهناك قتلوه بشكل مكشـوف، وأمـام جميع السكان تقريبـاً، وهذا كـان سبب مقتل المركيـز، ونحن في الحقيقـة، نتحـدث الصـدق في قـولنا بأن

مولانا الملك رتشارد لم تكن له علاقة بموت ذلك النبيل، الذي عانى بسببه ظلماً، من كثير من الأذى وذلك من دون سبب، ونؤكد لكم أيضاً بأننا لم نقتل أي انسان بهذه الطريقة من أجل جائزة، أو من أجل المال، بل فقط عندما ألحق الأذى بنا، واعلموا بأننا قد كتبنا هذه الرسالة في بيتنا في حصننا مصياف بحضور إخواننا، وختمناها بختمنا في منتصف شهر ايلول في سنة ألف وخمسمائة لتوقيت أيام الاسكندر(١)».

كيف جرت سرقة هيوج أسقف شستر وسلبه جميع مقتنياته

وفي هذه الآونة كان هيوج أسقف شستر مسرعاً مع هدايا كثيرة، كان قد اشتراها مع صعوبات جمة، لرؤية الملك، لكن عندما كان متوقفاً أثناء الليل قرب كانتربري للاستراحة، جرى اعتقاله وسرقته وسلبه جميع ماكان معه، وأظهر متى دي كليرا Clera شحنة قلعة دوفر التعاطف مع اللصوص ولذلك جرى حرمانه كنسيا من قبل رئيس الأساقفة، وليس من المعروف الآن فيما إذا كان قد كفر عن ذنبه.

موت صلاح الدين وخلافة سيف الدين له

وفي هذه الآونة نفسها، أصيب صلاح الدين العدو المعلن للحقيقة والصليب بزيارة الرب له، في أيام العيد في الناصرة، ومات فجأة، وبناء على ذلك اغتصب أخوه سيف الدين الملك هناك، لكن كان هناك معه الأبناء السبعة لصلاح الدين، وضدهم أبناء نور الدين، الذين طردوا من ملك أبيهم من قبل صلاح الدين ، حيث زحف هؤلاء مع حشد من الفرس، ومن هؤلاء أخوين هما صلاح الدين وسيف الدين، وذريتهما، والخلفاء من أولادهما، هناك حاجة قليلة للحديث عنهم من أجل توضيح هذا التاريخ، وذلك سوى القول بأنهم مشهورين في كل مجال لدى المسلمين، وكان صلاح الدين لدى موته، الذي ذكرناه، قد

١ــ انظر ص ٦٣٦، حيث ورد نص هذه الرسالة بشكل فيه بعض الخلاف.

خلف تسعة أولاد يرثون مملكته، لكن سيف الدين، أخاه الأصغر، قتل جميع أبناء أخيه، باستثناء واحد اسمه غياث الدين كان متملكاً لحلب مع جميع المدن المجاورة لها، والبلدات، وأماكن أخرى حصينة، كان عددها أكثر من مائتين، وكان لسيف الدين، الذي جعل من نفسه سيداً لمملكة أخيه، وقتل أبناء أخيه، خمسة عشر ولداً، سبعة منهم جعلهم ورثة لممالكه التي حصل عليها بالقتل، وكان أول أولاده اسمه الكامل، الذي ورث حكم الاسكندرية، والفسطاط، والقاهرة، ودمياط، وتنيس، مع جميع بلاد مصر، وامتلك ابنه شرف الدين دمشق والقدس، وجميع المناطق الصليبية، الحاوية لأكثر من ثلاثمائة مدينة، وحصن وقلعة، وذلك إلى جانب القرى، وامتلك ابنه الملك الأشرف منطقة اسمها حران(وخلاط) مع جميع المنطقة التي فيها أكثر من أربعمائة مدينة، وحصن، وقلعة، إلى جانب القرى، وامتلك ابنه الرابع الذي اسمه Mehemodain مملكة آسيا، التي احتوت على مايزيد على ستمائة مدينة، وحصن، وقلعة إلى جانب القرى، وامتلك ابنه الخامس Mechisemphat منطقة Sarcho ، حيث قتل هابيل، وتحتوي هذه المملكة على تسعمائة مكان وأكثر، بما في ذلك: المدن، والحصون، والقلاع، إلى جانب القرى، وحكم ابنه السادس Machinoth ، منطقة بغداد، حيث يعيش بابا المسلمين، الذي يدعى باسم الخليفة، وهو الذي يخشى منه ويحترم في شريعتهم مثل الحبر الروماني بيننا نحن أنفسنا، ويشاهد رجل الدين هذا مرتين في الشهر فقط، عندما يذهب مع تلاميذه— الذين يحتفظ بهم، مثل احتفاظ البابا بالكرادلة— إلى المسجد، حيث تجري— كما يقال— عبادة محمدﷺ رب الهاجريين، وبعدما يسجد هناك، ويؤدي صلاته وفقاً لشريعتهم، يقوم جميع الحضور، قبل مغادرتهم المعبد بالأكل والشرب، وبعد ذلك يعود إلى قصره، وزيارة محمدﷺ وتعبده هناك، هي مثلما يتعبد المسيحيون المسيح المصلوب، علاوة على ذلك إن مدينة بغداد التي فيها محمدﷺ والخليفة،

هي عاصمة الهاجريين، مثلما روما هي عاصمة الشعوب المسيحية، واسم ابن سيف الدين السابع Salaphat ، وبهذا لم تكن لديه منطقة ليرثها، غير أنه سكن مع أخيه الكامل، وهو الحامل لرايته، وإلى الكامل هذا نفسه، يرسل كل واحد من أخوته إليه سنويا، ألف دينار اسلامي، ومائة قطعة ذهبية، وفرسين مجهزين بشكل جيد، وعندما كان والدهم سيف الدين يذهب لزيارة أولاده، كان يقدم ورأسه مغطى بغطاء من الحرير الأحمر، وكان أولاده يخرجون لاستقباله، فسيجدون أمامه أربع مرات، ويقبلون قدميه، ثم يعانقهم ويصافحهم، وكان يجلس مع كل واحد من أولاده ثلاثة أيام كل عام، ويلبس كل واحد من أولاده خاتماً محفوراً عليه صورة أبيه، وكلما ركب سيف الدين المذكور وخرج، لايكشف عن وجهه سوى عشر مرات في العام، وعندما يتلقى رسلاً من عند أي أمير، يستقبلهم في قصره في اليوم الأول بوساطة أتباعه المسلحين، وفي اليوم الثاني يُعطي لهم جوابه حسب مقتضيات المناسبة، لكنه لايعطيهم الإذن بالاقتراب منه حتى اليوم الثالث، ويعيش أولاده الثمانية وفقاً لترتيبات أبيهم وفق الطريقة التالية: إثنان منهم مسؤولون عن ضريح المسيح، وإليهما يجري دفع المنح التي تقدم إلى الضريح، ويقتسمان ذلك بينهما، ودخلهما أكثر من عشرين ألف[دينار] اسلامي، ويتلقى الأربعة الآخرين الضرائب المجبية من النيل، ويساوي دخلهم أكثر من أربعين ألف دينار اسلامي، ويقف الابنان الآخرين أمام محمدﷺ، وإليهما يجري دفع الأعطيات التي تقدم عند قدمي النبي ﷺ، والتي تساوي أكثر من ثلاثين ألف دينار اسلامي، وعند سيف الدين خمس عشرة زوجة، والعدد نفسه من الورثة، واعتاد أن ينام مع زوجاته كل واحدة بدورها، وإذا كانت احداهن حاملة كان ينام معها بحضور البقية جميعاً، وعندما احدى هؤلاء الخمس عشرة تموت، كان يأتي بواحدة جديدة محلها، وذلك حسبما عادة شريعتهم، ويمتلك هؤلاء القوم شريعة مكتوبة أعطيت لهم من قبل محمدﷺ اسمها القرآن،

ويجري الحفاظ على أوامر ذلك الكتاب من قبل ذلك الجنس غير التقي من الناس(١)، كما نحافظ نحن المسيحيون على الانجيل.

كيف رغب جون أخو الملك بالاستحواذ على حكم انكلترا

وعندما كان الملك رتشارد— كما ذكرنا— محتجزاً من قبل الامبراطور، سمع أخوه جون بما نزل به، فاعتقد أنه لن يعود، فدخل في تحالف صداقة مع فيليب ملك فرنسا، وبوساطة النصيحة المؤذية لذلك الملك، عمل ترتيبات من أجل تتويجه مكان أخيه، لكن الانكليز باخلاص معلن لم يسمحوا بذلك.

كيف سعى الملك الفرنسي للاستيلاء على نورماندي

أطلق ملك فرنسا الآن العنان لكراهيته ضد الملك الانكليزي، فغزا مع جيش كبير نورماندي ولم يوفر أحداً من مرتبة، أو جنس، أو عمر، وبعث غيلبرت دي واسكويل Wascuil خلف الملك المذكور، وسلم بشكل خياني غيسور إليه، حسبما كان متفقاً بينهما، وأخضع بعد ذلك الملك المذكور منطقة فكسين Vexin النورماندية كلها، جزئياً من خلال الخيانة، وجزئياً بوساطة القوة، وكذلك كونتية أومرل Aumarle بعيداً حتى ديبي Dieppe مع وادي رويل Ruil ، وذلك مع الحصون الرئيسية، واستولى أيضاً على منطقة هيوج دي غورناي، الذي استسلم مع آخرين للملك الفرنسي، وفضلاً عن هذا حاصر روان، ولكنه صد بوساطة شجاعة ايرل أوف ليستر، ومقدرة السكان وصلابتهم، وطرد من تلك المدينة وهو مضطرب، مع خسارة لبعض عساكره، واستولى الملك المذكور على مدينة ايفروكس Evreux، ثم أعطاها لتكون تحت وصاية[جون] الايرل المذكور.

١— هذه المعلومات مشوهة إلى أبعد الحدود، هذا واستحالت مطابقة بعض أسماء أبناء الملك العادل مع الأصول المعتمدة عن بني أيوب.

كيف تزوج الملك الفرنسي من أخت ملك الدانمارك ثم طلقها على الفور

واقترن في هذه الآونة الملك الفرنسي بأخت ملك الدانمارك، التي اسمها إنغلبورغ Ingelburg وكانت سيدة ذات جمال مدهش، لكنه طلقها بعد الزواج، ووضعها بين الراهبات في سواسون Soissons، وأمر بالوقت نفسه جميع الدانيين الذين جاءوا معها بالعودة إلى بلادهم، وجرى في العام نفسه انتخاب هيوبرت وولتر، أسقف سالسبري، بشكل قانوني، رئيساً لأساقفة كانتربري، وفي اليوم التالي لعيد القديس ليونارد، وضع على عرشه، وإلى عنايته عهد بأمر من الملك رتشارد، بمملكة انكلترا، وبإدارة الأعمال هناك، فقد جرى ارسال وولتر رئيس أساقفة روان، من قبل الملك، إلى ألمانيا، وكان مصحوباً أيضاً بإليانور، أم الملك التي كانت متشوقة لرؤية ابنها.

كيف أطلق سراح الملك رتشارد ووصوله إلى انكلترا

عام ١١٩٤م، فيه جرى دفع الجزء الأكبر من الفدية، كما جرى فيه تسليم رهائن كضمانة مقابل المبلغ المتبقي

وفي اليوم المحدد، وهو يوم طهارة مريم المباركة، أطلق سراح الملك رتشارد، وسمح له بالعودة إلى مملكته، وبناء على ذلك انطلق مع أمه، والمستشار، وعبر من خلال أراضي دوق لوفين Louvain، ووصل إلى القناة البريطانية، وفي يوم الأحد، بعد عيد القديس غريغوري، وصل إلى انكلترا إلى ميناء، ساندويش، مما سبب السرور العظيم إلى جميع الطبقات، وفي الساعة نفسها التي وصل فيها الملك مع مرافقيه ونزلوا إلى اليابسة، وكانت الساعة الثانية من النهار، وعندما كانت الشمس مشرقة بوضوح، ظهر وقتها في السماء شكل شعشعاني غير معتاد، امتد بمقدار طول انسان وعرضه بعيداً عن الشمس، وكان أبيض لامعاً كثيراً

وأحمر اللون، وكأنه نوع من أنواع قوس قزح، وأعلن عدد من الناس الذين رأوا هذا اللمعان، بأن الملك هو على وشك الوصول إلى انكلترا، وفور وصول الملك انطلق يؤم كانتربري ليقدم تقديساته وعباداته في مزار القديس توماس، وذهب من ذلك المكان إلى لندن، واستقبل هناك بترحاب كبير، فقد تزينت المدينة كلها وتجملت من أجل قدوم الملك، وذلك بمختلف أنواع الزينة التي كان يمكن للثروة أن تنتجها، وعندما بات خبر وصوله معروفاً، خرج النبلاء والعامة لاستقباله على الطريق، بتشوق عظيم، ذلك أنهم كانوا قلقين جداً من أجل عودته من الأسر، بعدما كانوا يخشون أنه لن يعود مطلقاً، وتوقف الملك أقل من يوم في وستمنستر، قبل أن يأخذ طريقه إلى القديس إدموند ليعيد الشكر، وبادر من هناك مسرعاً إلى نوتنغهام ليحاصر وليعتقل أولئك الذين تآمروا ضده والتحقوا بالايرل جون، وكان جيش انكلترا قد استولى على كل قلعة عائدة لذلك الايرل المتقدم ذكره، وذلك باستثناء هذه القلعة فقط، التي كانت صامدة، ومدافع عنها بشجاعة، لكن عندما ألقى الملك الحصار عليها، وقام بهجوم واحد، بات المحاصرون على قناعة بعدم القدرة على الصمود بعد وصوله، فسلموا القلعة إليه، ووضعوا أنفسهم تحت تصرف الملك، واعتمدوا على رحمته، وقد سجن بعض هؤلاء، وأطلق سراح آخرين لدى تسلمه فدية مناسبة، حيث كان نهماً كثيراً وعظيم التشوق إلى مال كل واحد، لابل مالهم جميعاً، لأنه كان آنذاك في وضع ضائق كثيراً، وقد دفعه سببان إلى اتخاذ هذا المنهج، وهما التمكن من إطلاق سراح الرهائن الذين أعطيوا إلى الامبراطور من أجله، ولكي يستطيع أن يحشد جيشاً كبيراً ضد ملك فرنسا، الذي كان يلحق الدمار بممتلكاته في كل مكان، بالنار والسلب، ومع أنه لهذا السبب، قد استخرج أموالاً من أسراه بجشع أكبر مما يتواءم مع كرامته الملكية، إنه كان معذوراً ، وينبغي تسويغ عمله بدلاً من وصم سمعته، بسبب حاجاته الملحة.

تتويج الملك رتشارد وعبوره البحر على الفور إلى نورماندي

بعد تسوية هذه المشاكل في انكلترا واخضاع جميع المتمردين ضده بكل سرعة، جرى تتويج الملك رتشارد، وذلك بناء على نصيحة نبلائه مع أن ذلك ماكان ليضيف شيئا إلى شهرته، وكان التتويج في وستمنستر في اسبوع الفصح، وعمل القداس أثناء ذلك الاحتفال هيوبرت رئيس أساقفة كانتربري، وكان ذلك بحضور وليم ملك الاسكوتلنديين، وقام بعد ذلك في يوم عيد القديسين نيرو Nereus وآخيل Achilles بالاقلاع من بورتماوث، وأبحر إلى نورماندي[في ١٢— أيار]، ولدى وصوله توقف تلك الليلة للاستراحة في بارفلور Barfleur، وإليه قدم إلى هذا المكان أخوه جون متضرعاً، وألقى بنفسه مع كثير من عساكره على قدمي الملك، سائلاً الرحمة من أخيه مع كثير من الدموع، ومتهماً نفسه بكثير من الحماقات في كثير من المجالات، وبما أن الملك كان عاطفياً، فإنه لم يتمكن من حبس نفسه من الدموع، وأشفق على سوء حظ أخيه، ورفعه من على الأرض وأرجعه إلى متقدم حظوته لديه.

كيف أرغم الملك رتشارد الملك الفرنسي على الفرار من فيرنويل

وعلم الملك رتشارد بأن ملك فرنسا قد ألقى الحصار على فيرنويل Verneuil، وأنه عمل لمدة ثمانية أيام من دون نجاح، في محاولة بناء بعض آلات رمي الحجارة، وفي جلب أحجار كبيرة، وفي لغم الأسوار، والتضييق على الحامية المحاصرة، بأخذ طريقه نحو ذلك المكان بكل سرعة— وكان يوم أحد العنصرة قد اقترب حلوله— لكي لايتبجح الفرنسيون بالحصول على نصر في ذلك اليوم المقدس، وسمع الفرنسيون قبل حلول ظلام ذلك اليوم، بأن الملك الانكليزي كان مستعداً للقتال، وأنه سوف يصل عند انبلاج النهار، وقتها أصيب الفرنسيون بالرعب لدى سماعهم لهذا الخبر، ولأنهم كانوا كثيراً ماخبروا شجاعة الملك،

اختاروا لذلك الفرار وآثروه على القتال، وتراجعوا من معسكرهم، جالبين العار الأبدي على أنفسهم والشنار.

كيف عمل هيربرت المسكين أسقفاً لسالسبري

وجرى في هذه الآونة نفسها انتخاب هيربرت Herebert الملقب بالمسكين، والذي كان رئيسا لشمامسة كانتربري، أسقفاً لسالسبري بشكل قانوني، وتمت سيامته كاهنا في يوم أحد العنصرة، وجرت سيامته في اليوم التالي أسقفاً، من قبل هيوبرت رئيس أساقفة كانتربري، في وستمنستر، وقام الملك الفرنسي، في الوقت نفسه، أثناء تراجعه من فيرنويل، وهو غاضب يتهديم حصن صغير اسمه فاونتين Fountains ، وذلك حتى لايظهر بأنه لم يحدث شيئاً، فبتخريبه لهذا الحصن أعطى نفسه مظهر المنتصر، فعاد إلى ممالكه.

الاستيلاء على لوكس من قبل الملك رتشارد

وبعد هذه الأحداث، وصل الملك رتشارد إلى تور، وتسلم مبلغ ألفي مارك فضي عن طريق الهدية من برجوازية نوفشاتيل Neufchatel، حيث يرقد جسد القديس مارتن، ثم إنه زحف داخل حدود تور، وألقى الحصار على قلعة لوشي Loches ، حيث استولى عليها بالقوة بعد عدة أيام، وكان ملك فرنسا قد تسلم هذه القلعة من ضباط الملك الانكليزي، عندما كان هذا الملك سجينا، وذلك كنوع من أنواع الضمانة، حتى لايخرقوا المعاهدة المعمولة بين الملكين، وقد سلموه اياها وهي مشحونة بشكل جيد بالمؤن، ووضعوها بعهدة خمسة عشر فارساً، وثمانين جنديا، ووصل في هذه الآونة ابن ملك نافار لمساعدة الملك الانكليزي، مع جيش كبير، وكان بين أتباعه خمسين من رماة القسي العقارة إلى جانب مائة آخرين، وألحق هذا الأمير

الدمـار بأراضي غيـوفـري دي رافين Ravanne وأراضي كـــونت أنغوليم Angouleme.

كيف طرد الملك رتشارد الملك الفرنسي من منطقة تور

ودخل في هذه الآونـة أيضـاً فيليب ملـك فـرنســا إلى حــدود تور، ونصب معسكره قرب فيندوم Vindome ، ثم وجد بوساطة كشافته بأن الملك الانكليـزي كـان زاحفـاً ضـده، فقـوض في الصبـاح البـاكـر معسكره، وأسرع بقـدر مـاأمكنه نحـو فـريتفـال Freitval، لكن الملك الانكليزي طارده، واعتقل جميع أركـان فرقه، وكذلك أركـان الكونتات والبـارونات الذين كانوا يقـاتلون تحت قيـادته، وأشياء أخـرى لاتحصى عدداً، وحمل ذلك كله معه، وعبر بهذه الطريقـة إلى بواتو، وتمكن خلال أيام من اخضاع قلعة تيلبور Tailebure ، ومنطقة أعدائه، أي منطقة كـونت أنغـوليم، ومنطقة غيـوفـري دي رافين، وبذلك لم يبق ولا ثائـر واحد ضده من قلعة فيرنويل إلى كارليكرويكس Charlecroix.

كيف سعى الملك الفرنسي إلى خداع رتشارد

وأرسل في هـذه الآونة الملـك الفـــرنسي أربعـــة رسـل إلى الملك الانكليزي، لخداعـه عن طريق استخدام كلام معسـول، بقصد الاقتراح لإنقـاذ الرعـايا على الجانبين، الذيـن أفـرغـا صناديقهم في حـروبهما من الذهب والفضـــة، وليـــوقفـــا سفـك الدمـــاء النبيلة في المملكتين، وأن إدعـاءات كل منهما يتوجب أن تتقـرر بناء على مبـارزة خمسة رجـال من على كل طرف، وأن ينتظر مقدمي كل مملكة نتيجة المبارزة، فبعد المبارزة مـن الممكـن الحكـم بما هـو حق لكـل ملـك، وأرضـى الاقتراح الملـك الانكليـــزي إلى أبعـــد الحدود، شريطـة أن يكون الملك الفـــرنسي هو الشخص الخامس من جـانبـه، وهو أي الملك الانكليـزي سـوف يكون كـــذلك الخامس من الجانـب الانكليـــزي، وأنهم ينبغي أن يحافظوا على

المساواة في الرجال والسلاح، وأن يشتبكوا بفريقين متساويين، وقد رفض الملك الفرنسي الموافقة على هذا، على الرغم من سخرية كثيرين به، وبعد هذا تم الاتفاق على هدنة بين الملكين الفرنسي والانكليزي، بناء على وساطة بعض رجال الدين بينهما، لكن المبادلات التجارية بين الطرفين كانت ممنوعة.

كيف أسس الملك رتشارد مبارزات في جميع أرجاء انكلترا

وعبر في هذه الآونة الملك رتشارد إلى انكلترا، وعين مواعيد مبارزات تعقد في بعض الأماكن، وقد اقتنع بفعل ذلك للسبب التالي: وهو إمكانية أن يجد الجنود الانكليز أنفسهم مضطرين للمواجهات من جميع الجهات والمناطق، ولذلك عليهم البرهنة على قوتهم، بتدريب خيولهم في الحلقة، وبذلك يكونون أكثر رشاقة وتجربة من أجل القتال ضد أعداء الصليب، لابل حتى ضد جيرانهم.

وجمع في هذه الآونة أيضا واحد اسمه الكسيوس بن مانويل— الذي كان من قبل امبراطور القسطنطينية— جيشاً، وسجن اسحق الامبراطور الحالي، الذي كان قد حاربه، وقد حرمه من نظره، وأخيرا أودعه السجن بشكل أبدي، بعدما خصاه، واستولى على امبراطوريته.

كيف قدم الملك الانكليزي شكوى أمام مولانا البابا ضد دوق النمسا لسجنه إيّاه

عام ١١٩٥م، فيه أرسل الملك رتشارد رسلاً إلى الكرسي الرسولي، مع توجيهات أن يضعوا الشكوى التالية أمام مولانا البابا:« أيها الأب المقدس، مولانا رتشارد ملك الانكليز يحيي سموكم، ويطلب اظهار العدل له ضد دوق النمسا، الذي اعتقله وسجنه، عندما كان عائداً من حجه المتعب، وآذاه بطريقة مضرة حتى لايكون أميراً له سمعته الكبيرة،

وباعه بعد ذلك إلى الامبراطور وكأنه كان ثوراً أو حماراً، وإلتهم بعد ذلك كلاهما قوام إمكانيات مملكة انكلترا، بطلب مبلغ لايحتمل من أجل فديته، وعلاوة على ذلك، زاره الذين لم يكونوا غرباء بالنسبة لقوانين المسيحية بأحكام أشد قسوة في هذه القضية، مما كان يمكن لصلاح الدين أن يفعله، لو أنه بسبب سوء حظ مماثل وقع في يدي ذلك المسلم نفسه، الذي إلى حربه ارتحل الملك المذكور من بلاده، تاركاً مملكته التي حصل عليها مؤخراً، وبلاده، وأقربائه، وأصدقائه، ولعله كان يعرف كيف يقدم الاحترام لنبالته وشجاعته، أو لجلالته كملك، الأمر الذي لم يعرف ذلك الجيل من البرابرة العنيدين كيف يقدرونه، لابل ربما فعلوا ذلك حتى يعزون باعتقال مثل هذا الأمير العظيم، سمعة النصر الطيبة إليهم، مع أنهم ماكانوا ليتجرأوا مطلقاً على مواجهته في قتال مكشوف، عندما يكون محاطاً من قبل جيشه الشجاع، ودعهم لايعتقدون أن إهانة الملك تأتي من قبلهم، لابل بالحري إن ذلك قدر من الرب ونصيب، الرب الذي بإرادته يذل دولاب الحظ انساناً ويعز آخر، ويسقط واحداً ويرفع آخر، وكذلك كان مما أغضب مولانا الملك كثيراً، أنه اعتقل في أيام السلم، وعندما كانت حمايتكم ممنوحة إلى جميع الحجاج لمدة ثلاثة أعوام، وأن هذا كان ملزما ومؤكدا بوساطة عقوبة الحرمان الكنسي، وأنهم على الرغم من ذلك جعلوه سجيناً، وهو عائد من حجه، وكان يعدّ العدة لعودته ثانية، وألقوه في السجن، وأرغموه على دفع مبلغ ثقيل من أجل فديته، فهل من الممكن لسموكم— بناء عليه— إعطاء أوامر إلى ذلك الدوق، ليسمح لرهائن مولانا الملك، الذين مايزالون محتجزين لديه بمثابة سجناء مقابل جزء من الفدية لم يدفع بعد، لكي يغادروا وهم أحراراً، وكذلك حتى يعيد كامل المبلغ، الذي تلقاه ذلك الرجل المحروم كنسياً، من مولانا، وأن يقدم تعويضاً مناسباً مقابل الأذى الذي أنزله به وبرعيته».

حرمان الدوق كنسيا من أجل الملك رتشارد

وبعدما ترافع رسل الملك بهذه الشكوى وبشكاوى أخرى كثيرة، أمام الحبر الأعظم، نهض عندها مولانا البابا مع كرادلته، وحرم كنسيا الدوق نفسه بالاسم، وبشكل عام جميع الذين عاملوا بعنف الملك ورجاله، ووضع كذلك جميع أراضي الدوق تحت الحرمان من شركة المؤمنين، وأعطى أوامر إلى أسقف فيرونا حتى ينشر قرار الحرمان الكنسي هذا في جميع أرجاء دوقية النمسا، وأن يعلن ذلك كل يوم أحد ويوم عيد، وأن يقول مايلي:« وإنه إذا ماقرر الدوق المذكور إطاعة قراراتنا، نأمره بفضل الرب وإرادته، أن يقوم باطلاق سراح جميع رهائن ملك انكلترا، وأن يلغي جميع الاتفاقات، وأن يعيد جميع المقتنيات التي أُخذت منهم من قبله ومن قبل أتباعه، وكذلك ماكان قد تسلمه بشكل ظالم بمثابة فدية من أجل الملك المذكور نفسه، وأن يرسل الرهائن المذكورين بأمان إلى بلادهم، وبالنسبة للمستقبل أن لايقدم على مثل هذه الأشياء ثانية، بل أن يقدم تعويضاً مقابل الأذى والأضرار التي أنزلها».

الموت التعيس لدوق النمسا

وجرى التفوه بهذا كله ضد الدوق من قبل أسقف فيرونا، غير أنه أصر على موقفه بعدم القبول بالوصاية الرسوليه عليه، وفي تلك الآونة أصيبت بلاده أيضاً بجدب لم يسمع بمثله، وبالمجاعة أيضاً، وبالأمراض، وفاض أيضاً نهر الدانوب في هذه الأيام بشكل غير معتاد في بعض أجزاء البلاد، وغرق بتلك الحادثة غير المتوقعة عشرة آلاف انسان، ولكن على الرغم من جميع هذه الأحداث والأشياء، لم يتغير غضب الدوق، لابل بالحري إزداد، وأصيب أخيراً هو نفسه بنازلة لاهوتية، ففي يوم عيد القديس اسطفان، كان يقوم بنزهة على ظهر حصانه مع أتباعه وحاشيته، فرمح الحصان الذي كان يركبه بعنف،

وأصاب بحافره ساق راكبه بجرح لايمكن شفائه، وعلى الفور تحولت الساق والقدم إلى السواد والإحمرار، والتورم، ولم تستطع كمادات الطبيب تخفيف ذلك، وتعذب الدوق بشكل لايحتمل بسبب لهيب الاصابة،— كما كانوا يسمونها— وذلك بالاضافة إلى التورم، وبعد طول عذاب لم يعد قادراً على تحمله، أمر ببتر قدمه، وأخذ هو نفسه، في الوقت ذاته فأساً، وقد رفض ذلك كل واحد برعب، لكنه لم ينج بهذا من عذاب آلامه، لأنه هو وطرفه وبقية جسده بدأ يتداعى من شدة الالتهاب، وبعد هذا، أخذ يعترف بالجريمة الشريرة التي اقترفها، من خلال تآمره، ضد الملك، وتخلى عن المتبقي من المال المستحق من أجل فدية الملك، ووعد أيضاً بأنه سوف يعيد ماتسلمه، وتعهد من ذلك الوقت فصاعداً، أن يكون مطيعاً لحكم الكنسية، وعندما رآه الأساقفة في هذه الحالة من الآلام، حللوه من الحرمان الكنسي، وقبلوه في شراكة المؤمنين، وهلك بعد ذلك وسط آلام مرعبة، وبقي جسده لبعض الوقت من دون دفن، حتى تغطى بذباب مخيف، وذلك لأن ابنه رفض تنفيذ أمر أبيه، غير أنه أخيراً أجبر على فعل ذلك من قبل أصدقائه، فأطلق سراح الرهائن وسمح لهم بالعودة إلى بلادهم].

كيف أخضع الامبراطور هنري مملكة أبوليا

وفي هذه الآونة استولى الامبراطور هنري على مملكة أبوليا، وصقلية، فقد مات تانكرد الذي خلف الملك وليم بصورة غير عادلة، لأن هذا الامبراطور نفسه كان قد تزوج من أخت الملك وليم وإليها عاد الحق بالمملكة لدى وفاة أخيها.

غزوة مخيفة لاسبانيا من قبل المسلمين

تدفق في هذه الآونة ملك المغرب وانقض مع ثلاثين مقدما، وجيش من المسلمين لايمكن تعداده، من أفريقيا على اسبانيا، للإستيلاء على

أراضي ملك اسبانيا، وبعدما عاثوا في عدة مناطق أخرى بالنار، وسلبوها دون أن يوفروا أحداً لجنسه، أو مرتبته أو عمره، إلاّ الذين استسلموا بأنفسهم أمام غضبه، وقد تألف جيشه من ستة ملايين من الرجال المقاتلين، وارتعبت المسيحية كلها أمام هذه الغزوة غير المتوقعة،[وسمعوا بأن البابا اقترح الدعوة إلى عقد مجمع ديني عام، وتشكيل حملة صليبية ضدهم، يقودها رتشارد المجيد ملك انكلترا، الذي ملأت شهرته الشرق ،ونشر رعباً كبيراً في جزء كبير من أفريقيا، وكانوا قد سمعوا أيضاً بسجنه وباطلاق سراحه، وكيف أنه منذ ذلك الحين قد أرغم ملك فرنسا على الانصياع له، ولذلك عاد جميع المسلمون إلى بلادهم.

موت الراعي وارين وخلافة جون للرعوية

في التاسع والعشرين من نيسان من السنة نفسها، مات وارين راعي كنيسة سينت ألبان، بعدما شغل ذلك الكرسي لمدة أحد عشر عاماً، وثمانية أشهر، وثمانية أيام، وقد خلفه جون، الذي كان راهباً من المؤسسة نفسها، وقد جرى انتخابه في الحادي والعشرين من آب، وتلقى في الثلاثين من الشهر نفسه، المباركة من رتشارد أسقف لندن.

نيابة هيوبرت رئيس أساقفة كانتربري للبابوية

وكتب في الوقت نفسه البابا سيليستين إلى جميع أساقفة انكلترا يقول:« من سيليستين إلى إخواننا المحترمين: رئيس أساقفة يورك، وجميع الأساقفة، ورعاة الديرة، ورؤساء الرهبان، والأساقفة الآخرين المعينين للكنائس في جميع أرجاء مملكة انكلترا، التحيات، الخ: بما أنه من مهامنا الأمر بتقديم العناية الأسقفية إلى جميع الكنائس، إننا ننظر الآن بعين تقديرنا الأبوي بشكل خاص إلى الكنيسة الانكليزية، وقد قمنا من أجل سلامة تلك المؤسسة، بناء على النصيحة العامة لإخواننا، فرسمنا، بأن

يكون أخانا المبجل هيوبرت رئيس أساقفة كانتربري، الذي لمحاسنه، وفضائله، وحكمته، وعلمه، تبتهج الكنيسة كلها، هو شخصياً المتولي لإدارة النيابة البابوية، وأن يمارس بارادته جميع أعمالنا من أجل رفع شأن الكنيسة، وفي سبيل سلام وسلامة المملكة كلها، خلال جميع أرجاء انكلترا، من دون أية امتيازات، أو استثناءات لكم، أو لكنيستكم ياأخانا رئيس الأساقفة، أو لأي شخص آخر، وبسلطات هذه الأحوال على هذا، نأمر كل جماعتكم، أن تقدموا الاحترام المستحق والتشريف إلى هيوبرت المذكور، بمثابة نائب للكرسي الرسولي».

لوم البابا لملك فرنسا من أجل طلاقه لزوجته

وكتب في هذه الآونة البابا سيليسين بين أشياء مختلفة كثيرة إلى رئيس أساقفة السين كما يلي:« بما أننا نمنح من قرارة أنفسنا وعواطفنا تقديراً خاصاً لملك فرنسا، قمنا بارسال ابننا المحبوب معاون الشماس، كمندوب للكرسي الرسولي ونائب له في سبيل أن يطلب من الملك المذكور وجوب معاملته لزوجته بعواطف الزوج، الزوجه التي أبعدها عنه، باصغائه لمشورة شريرة، وأن لايستمع إلى أولئك الناس الذين يرون أنه مربح القيام بزرع الكراهية وعدم الوفاق بين الناس عندما يستطيعون، ولذلك قمنا بناء على نصيحة إخواننا، بإلغاء قرار الطلاق إلغاء كلياً، وهو القرار الذي صدر مضاداً للشريعة، ونأمركم برسائلنا الرسولية هذه، ونوصي بكل دقة أخوتكم، إنه إذا ماأراد الملك المتقدم الذكر، أو رغب خلال حياتها الاقتران بواحدة مكانها، أن تتولى بعناية منعه من القيام بذلك، وذلك بوساطة سلطاتنا الرسولية».

مرسوم البابا إلى أساقفة انكلترا بشأن الأرض المقدسة

وفي هذه الآونة كتب البابا سيليستين إلى هيوبرت رئيس أساقفة كانتربري، وإلى أساقفته الكهنة المساعدين حول مواضيع كثيرة من بينها

حول الأرض المقدسة قوله:« إخواني، رؤساء الأساقفة، والأساقفة، الذين إليهم موكلة العناية بالأنفس، عليكم القيام بصلوات مستعجلة ومستمرة إلى الرب، حتى تقنعوا كثيراً من الناس، خاضعين لحكمكم، من أجل حمل الصليب، وأن تثيروا أنفسهم حتى يسببوا الاضطراب إلى معذبي المسيحية، ذلك أننا نأمل كثيراً جداً، وعليكم أن تأملوا أيضاً، أن يقوم الرب بتبشيركم وبصلواتكم، فيدع شبكتكم تنزل للصيد، وسوف يثير مثل هؤلاء الناس من أجل الدفاع عن البلاد الشرقية، فبفضل احسان الرب وليس بفضل قدرتهم وبراعتهم بالقتال، سوف يثورون، وأعداءه سوف يتفرقون، والذين يكرهونه سوف يفرون من أمامه، هذا وبالنسبة للذين سوف يقومون بهذا الحج في سبيل محبة الرب، وسيبذلون قصارى جهودهم وقدراتهم للوفاء بعهودهم، سوف نقوم بفضل السلطة الربانية الموكلة إلينا، بمنحهم التحليل نفسه من أي عقوبة مفروضة عليهم من قبل رجال الكهنوت، وذلك كما هو معروف بأن سلفنا قد منحوا ذلك في أيامهم، أي أن أولئك الذين سيتجشمون متاعب هذا الحج، بقلب خاشع ونفس متواضعة، سوف يكون مضيهم في هذه الرحلة بمثابة غفران لذنوبهم، وإذا ماتوا مخلصين، فإنهم سوف يحصلون على تحليل كامل من جميع آثامهم، وعلى حياة سرمدية، ولتكن سلعهم أيضاً وأسرهم من وقت حملهم للصليب تحت حماية كنيسة روما، وكذلك الأساقفة وبقية أساقفة الكنيسة، وينبغي أن لايكون هناك خلاف بشأن الممتلكات التي امتلكوها بسلام في أيام حملهم للصليب، وذلك حتى عودتهم، أو حتى تتأكد معرفة موتهم، ولتبق ممتلكاتهم بالوقت نفسه دون أن تلمس من قبل أحد أو تتأثر، والذين بعثوا بممتلكاتهم، لمساعدة تلك البلاد، سوف ينالون العفو عن ذنوبهم، وفقاً لما يقضي به الأساقفة، وبالنسبة لك أيها الأخ رئيس الأساقفة، رأينا من الموائم أن نعهد إليكم بمجهود هذا العمل، ونأمركم باستخدام نفوذكم، مع ابننا المحبوب بالرب، الملك اللامع لانكلترا، الذي عمل

هدنة لمدة ثلاثة أعوام في الأرض المقدسة، لكي يرسل فرساناً وجنداً مجهزين بشكل جيد لحماية تلك البلاد، ونأمركم أيضاً بالترحال خلال انكلترا، والقيام بحث الناس بمناسبة وغير مناسبة بشكل مستمر، والتبشير أيضا لتحريض الناس على حمل الصليب والسفر إلى بلاد ماوراء البحر للدفاع عن الأرض المقدسة»، [وعندما وصلت هذه الرسائل إلى مسامع الملك، تحمس كثيراً للعمل في سبيل الصليب، وحث الآخرين، ولاسيما الذين رقّاهم، بكثير من الطرق، لأن يكونوا متحمسين مثله أيضاً، وكذلك في سبيله هو نفسه، ومن أجل تقدم الصليب، وكذلك في سبيل انقاذ أرواحهم، ولكي يكون أكثر تأثيراً، وجه اللوم إلى بعض الذين كانوا غير مطاوعين لأعمال الحث والندب هذه، واتخذ لنفسه شكل واعظ، وغالباً ماكرر النصيحة للذين كانوا من حوله].

عقد معاهدة بين ملكي فرنسا وانكلترا

عام ١١٩٦م، فيه أمضى الملك رتشارد عيد الميلاد في مدينة بواتو، وبعد عيد القديسة هيلاري، التقى فيليب ملك فرنسا، ورتشارد ملك انكلترا، في مؤتمر في لوافير Louviers، حيث عقدت فيما بينهما المعاهدة التالية: تنازل الملك الفرنسي للملك رتشارد ولورثته عن ايسودون Iso-udun مع توابعها، وعن جميع الحقوق التي له في بري Berry، وأوفرين وغاسكوني، وأعطاه تملكاً كاملاً لقلعة آرشي Arches، وكونتيتي أوشي Auches، وأموريل Aumarle ، وحصوناً أخرى كثيرة، هي التي استولى عليها الملك الفرنسي منذ عودته من الحج إلى الأرض المقدسة، وتنازل الملك الانكليزي إلى الملك الفرنسي عن دعواه بالنسبة لقلعة غيسور وجميع منطقة فكسين النورماندية، وفي سبيل تنفيذ هذه البنود كلها وتأكيدها، أوجدا بشكل متبادل ضمانات، وقررا غرامة خمسين ألف مارك فضي على الذي يخرق المعاهدة من الجانبين، لكن مع

مرور الأيام، بعدما تسلم رتشارد الممتلكات التي تقدم ذكرها مع الأماكن، ندم الملك الفرنسي لعقده لهذه الصفقة، وجمع جيشاً كبيراً ليلقي الحصار على أموريل، وبناء عليه أمر الملك الانكليزي بالقيام بحجز جميع السلع والممتلكات التي كانت في ممالكه، والتي هي عائدة إلى رعاة ديرة: مارمونتير Marmontier ، وكلوني، والقديس دنس، وتشارتي Charite ، الذين كان الملك الفرنسي قد قدمهم ضمانة للمعاهدة المتقدم ذكرها، وأخذ عليهم العهد بدفع المال المذكور آنفاً إلى الملك الانكليزي، إذا لم يلتزم الملك الفرنسي بمراعاة اتفاقه، واستولى في الوقت نفسه الملك الفرنسي على قلعة أموريل بالقوة، وهدمها، وأعطاه ملك انكلترا ثلاثة آلاف مارك من الفضة من المال المذكور آنفاً، مقابل فدية فرسان ذلك الحصن، مع أتباعهم، وأن يسمح لهم بالمغادرة من دون خيولهم وأسلحتهم، وبعد هذا استولى ملك فرنسا على نونانكورت Nonancourt، واستولى الملك رتشارد على قلعة غامي Gameges، وهكذا شغل الملكان نفسيهما في عملية الاستيلاء على القلاع.

موت وليم الذي كان من سكان لندن من قبل

وتفجر في هذه الآونة خلاف في مدينة لندن، ونزاع بين الأغنياء والفقراء حول توزيع حصص الضرائب التي يتوجب دفعها إلى الخزانة، والتي— كما قالوا— غالباً لم تفرض بالمساواة، وكان السبب في قيام هذا الخلاف هو وليم فتز— أوسبيرت Fitz- osbert، الذي قام مراغمة لجلالة الملك، فعقد اجتماعات للناس، وربط كثيراً منهم به بالأيمان لدى اجتماعهم، وعاقب حتى الموت أخاه مع رجلين آخرين بريئين وكأنهم أدينوا بالخيانة نحو الملك، وفجر أخيراً عصياناً واضطراباً في كنيسة القديس بولص، وعندما علم فيما بعد بأنه بسبب جرائمه أثار غضب الملك ضده بشكل حاد، اعتصم في داخل برج احدى الكنائس، وكانت ملكاً خاصاً لرئيس الأساقفة، وبذلك عمل قلعة من المبنى المقدس،

وعندما رأى بأن عصابة من الرجال المسلحين قد التفت من حوله، ولكي يتجنب الموت الذي كان يخشاه، ألقى النار في هيكل العذراء المباركة، وأحرقت هذه النار شطراً من المكان الذي كان مكرساً للرب، وسحب أخيراً من داخل الكنيسة، ونقل إلى برج لندن، حيث تلقى حكماً نهائياً، ولكي تلقي عقوبة انسان واحد الرعب في قلوب كثيرين، جرى تجريده من ثيابه الطويلة، وبعد ربط يديه خلف ظهره، وربط قدميه مع بعضهما، وضع على ظهر حصان، وجرّ خلال وسط المدينة إلى مشانق في تايبورن Tyburn ، وهناك جرى تعليقه بالسلاسل مع تسعة من أتباعه المتآمرين، وذلك بهدف اظهار أن عقوبة مماثلة سوف تنتظر الذين يجرمون بجرائم مماثلة.

وفي العشرين من تشرين أول[تشرين الثاني] من السنة نفسها جرت سيامة جون عمدة روان لأسقفية وينكستر، وفي هذا العام أيضاً بنى الملك رتشارد قلعة جديدة في جزيرة أندلي Andelys ، وذلك مراغمة لرغبات وولتر رئيس أساقفة روان، وبعد انذاره مرارا للتوقف عن هذا المشروع، وضع رئيس الأساقفة المتقدم الذكر نورماندي كلها تحت الحرمان، وبناء عليه ذهب إلى بلاط روما.

أسر هيوج دي شومونت

ونشبت في العام نفسه معركة بين أتباع الملك الفرنسي وأتباع الملك الانكليزي، وقع فيها بالأسر هيوج دي شومونت Chaumont، وكان صديقاً كبيراً للملك الفرنسي، وقد حمل إلى أمام الملك الانكليزي، الذي أعطاه سجينا إلى روبرت دي روز Ros ، وأعطاه هذا الفارس إلى وليم دي ايبني Epinayليعتني به، وكان وليم تابعاً له، وبسبب خيانة هذا التابع نجا، وكان ذلك بعد حصوله على إذنه، فقد دلّى نفسه من سور قلعة بونفيل Bonville على التوك Tuke حيث كان مسجوناً، وهكذا قال وداعاً لهم، وغضب الملك رتشارد غضباً عظيماً من روبرت

دي روز، وأخذ منه ألفاً ومائتي مارك من الفضة لجريمته، وأمر بتعليق وليم دي ايبني على المشنقة.

أسر أسقف بوفياس ووليم دي ميرل

بعد هذا الحادث كان جون، أخو الملك وميركادوس Mercadeus أمير برابانت يقومان بغارة أمام مدينة بوفياس Beauvais وبنيتهما الاستيلاء على بعض الأسلاب، فخرج من المدينة فيليب أسقف ذلك المكان مع وليم دي ميرل Merle وابنه وعدد من الفرسان وبعض الجنود، للتصدي لهما، لكنهم وقعوا بالأسر بعد وقت قصير، وجرى قتل عدد كبير من الجنود، وفي هذا اليوم، وبعد عملية الأسر هذه، تابع النبيلان الانكليزيان نفساهما الزحف إلى ميلي Milli ، وهي قلعة كانت ملكاً للأسقف السالف الذكر، فاستوليا عليها بالقوة، ودمراهابعد ذلك، ثم عادا بعد هذا منتصرين، وأرسلا أسراهما إلى الملك الانكليزي، وبما أن الأسقف قد أسر بقوة السلاح، فقد أودع السجن، وغلّ بأغلال حديدية ثقيلة، وحدث في العام نفسه فيضان مفاجيء للسين، وتدفقت المياه وأحاطت بالأبنية المجاورة المبنية سواء من الخشب أو من الحجارة، وسببت دمارها، الأمر الذي أخاف ملك فرنسا كثيراً وموريس أسقف بيرشي، الذي كان مقيماً في باريس، وغادر الملك قصره، وأخذ ابنه لويس معه، وذهب لتمضية الليل في كنيسة القديسه جنيفا، وهرب الأسقف إلى كنيسة القديس فكتور.

حول رؤيا رآها أحد الرهبان وحول مطهرة ومكان للعقوبة القراءة حولهم مفيدة جداً

وقع في هذه الأيام واحداً من الرهبان العائدين إلى دير إيفهام Evesham مريضاً، وظل لمدة خمسة عشر شهراً يعاني من آلام مبرحة بالجسد، وكان دوما يتقيأ مايتناوله من طعام وشراب، إلى حد أنه صار

أحياناً كل تسعة أيام أو أكثر لايتناول شيئاً، أو على الأغلب بضع نقاط من الماء البارد، ولم تستطع براعة أي طبيب معالجته، بل كان كل مايعطيه إياه أي واحد من الأطباء له تأثير معاكس، وهكذا تمدد على فراشه بلا حراك، ذلك أنه فقد كل قوته الجسدية، حتى أنه لم يعد بامكانه التحرك من أي مكان مالم يجري نقله من قبل الخدم، ولدى اقتراب حلول يوم قيامة ربنا بدأ يشعر بأن الأمور باتت أسهل، وسار حول قلايته وهو يتوكأ على عصا، ثم مضى أخيراً في الليلة التي تقدمت على يوم عشاء ربنا، وهو معتمد على عصاه، ودخل إلى قاعة كبيرة، مدفوعاً إلى ذلك بتقواه، دون أن يعرف هل هو في الروح أم في الجسد، وهناك عندما كان الرهبان المحتشدون يؤدون صلواتهم الليلية المعتادة إلى الرب، شعر بضغط عظيم للرحمة اللاهوتية، وللنعمة السماوية، إلى حد أن خشوعه المقدس قد فاق الحدود، فمنذ منتصف تلك الليلة حتى الساعة السادسة من اليوم التالي، لم يستطع منع نفسه من البكاء، وتقديم الشكر للرب، ثم إنه بعث خلف اثنين من الرهبان، من الذين يسميهم رجال الدين باسم« المعترفين»، واحداً بعد الآخر، وقام هناك وهو يبكي، ومع نقاء وصفاء بالقلب، بالاعتراف لكل واحد منهما بجميع أخطائه، حتى بالأخطاء الصغيرة جداً منهم، سواء أكانت ضد القصاص أو ضد وصايا الرب، ثم إنه سأل التحليل وحصل عليه، وهكذا أمضى اليوم كله في خشوع وفي تقديم الحمد للرب.

كيف وُجد الراهب نفسه راقداً وكأنه ميت

وحصل في الليلة التالية على قليل من النوم، وعندما قرع جرس الصلوات الليلية، نهض من فراشه، وأخذ طريقه إلى الكنيسة، لكن ماالذي حدث هناك، هو الذي تحكيه الرواية التالية: ففي صباح اليوم التالي، الذي كان يوم استعداد، وعندما نهض الرهبان من أجل الصلاة الصباحية، وكانوا يعبرون أمام مكتب كهنة الكنيسة، وذلك على

طريقهم إلى الكنيسة، رأوا الراهب نفسه متمدداً ساجداً بقدمين حافيتين، أمام كرسي راعي الدير، وذلك حيث اعتاد الرهبان على التماس السماح، وكان وجهه ملتصقاً بالأرض، وكأنه يسأل السماح من واحد كان جالساً أمامه، واندهش الرهبان أمام هذا المشهد، وحاولوا أن يرفعوه، فوجدوه من دون تنفس وبلا حراك، مع عينيه وقد جحظتا نحو الأعلى، وكان بؤبؤا العينان والأنف مبللين بكمية من الدم، فصرخوا جميعاً بأنه كان ميتاً، حيث وجدوه قد فقد كل نبض في عروقه منذ زمن طويل، وبعد أمد اكتشفوا أنه مايزال يتنفس لكن بضعف، فغسلوا رقبته، وصدره ويديه بماء بارد، فرأوه في المقام الأول يرتجف قليلاً بجسده كله، لكنه مالبث أن أصبح هادئاً دون حركة، وبقيوا لوقت طويل في شك كيف يعمل، غير عارفين بشكل أكيد، هل هو ميت أم تحسن بعض الشيء، وبعد طويل وقت، وبعد مناقشات طويلة، حملوه إلى المصح، ووضعوه على فراش، وعينوا بعض الأشخاص لحراسته بعناية، ثم إنهم وضعوا كمادات على صدره، وجربوا احساسه بوخز قدميه بالإبر، لكنهم لم يعثروا على اشارات بوجود حياة فيه، وبقي على هذه الصورة ممدداً على فراشه من دون حراك لمدة يومين، أي من منتصف ليلة يوم الاستعداد حتى منتصف يوم السبت التالي، لكن في يوم السبت العظيم عندما كان الرهبان على وشك الاجتماع من أجل قداس منتصف الليل، بدأ جفنا الراهب المتقدم الذكر بالتحرك بشكل لطيف، وبعد قليل بدأ شيء رطب يشبه الدموع يسيل على وجنتيه، ومثل أي انسان ينتحب أثناء النوم، بدا وكأنه يتنهد بشكل متوالي، ثم ظهر بعد قليل كأنه يتفوه بكلمات في حلقه بشكل عميق، لكن بصوت كان من الصعب سماعه، وبعد أمد عاد تنفسه إلى درجة ما، ثم إنه بدأ يدعو القديسة مريم قائلاً:« يامريم المقدسة، لأي جريمة حرمت أنا من السرور إلى هذه الدرجة العظيمة»؟ وأخذ وفق هذه الطريقة يكرر هذه الكلمات وكلمات أخرى، فجعل بذلك معروفاً، من قبل الواقفين،

حرمانه من بعض السرور العظيم، وبعد هـذا، هزّ رأسه، وكأنه قد أفاق من نوم عميق، وأخذ يبكي بمـرارة، وشرع بالتنهد، ودموعـه تتدفق من دون توقف، ثم إنه بيدين مغلقتين، مع أصابعه وقد تجمعت مع بعضها، أنهض نفسه فجأة، وأخذ وضع الجلوس، واضعـاً رأسه على ركبتيه وقد غطاه بكفيه، لأنه بدأ بنواحه ونحيبه، وبعد كثير من المحاولات من قبل الرهبان، ليقوم بعد ذلك الصوم الكبير والمعاناة الطويلة، فيتناول شيئا ما ليأكله، أخـذ قطعة صغيرة من الخبز، ثم استمـر يقظاً وهو يصلي، ولدى سـؤاله عما إذا كان يتـوقع النجـاة من مـرضه، أجـاب:« سـوف أعيش طويلاً بما فيه الكفاية، لأنني شفيت تماما من ضعفي»، وفي الليلة التالية، أي ليلة قيامـة ربنا، وعندما قرع الجرس من أجل الصـلاة الليلية، ذهب إلى الكنيسة من دون مساعدة، ودخل إلى السـدة، وهو مالم يفعله خلال الأحد عشر شهـراً الماضية، وفي اليـوم التالي بعدمـا أدى صلواته بشكل موائم، عدّ جديراً بالانعـاش عن طريق المشاركة في تناول العشاء الرباني المقدس.

كيف حكى الراهب المتقدم ذكره خبر الرؤيا التي رآها

وبعـد هذا التحق هذا الراهـب نفسـه بحماس في الواجبـات الدينيـة للرهبان الآخرين، وهم بدورهم رجوه بالحاح اشباع رغباتهم بأن يحكي لهم الذي حـدث له، وكل الذي رآه في منامـه، لأنهم كـانوا مقتنعين بأن أشياء كثيرة قد أريت له، وذلك من خلال علامات واضحة، ومن سماع كلماته، ومن رؤية نحيبه المتـواصل عندما أفاق في اليوم المتقـدم، وبعدما أجلهم لبعض الوقت، صـاروا ملحين في طلبهم، قـام أخيراً وهو يبكي ويتأوه، وبصـوت متحشرج، فتحـدث عما ألم بـه وظروفـه وفق الترتيب التالي حيث قال:« عندما كنت— كما تعلمون— أعاني من عجز جسدي طويل وحاد، صرت أبارك الرب بالقول والتفكير، ورجعت إليـه شاكراً لتنازله بمطاردة عبـده الحقير بعصـاه الأبوية، وبعـدمـا فقـدت كل أمل

بالشفاء، شرعت بإعداد نفسي بقدر ماأستطيع حتى أتمكن من النجاة من عذاب الوضع المستقبلي، بما أنني كنت على وشك الاستدعاء من الجسد، وفيما أنا متفكر بشكل مثابر حول هذه الأشياء، أغويت في أن أسأل الرب أن يتلطف بطريقة ما، فيكشف لي أحوال الحياة المقبلة، وماهي الأوضاع بعد هذه الحياة، وبعدما تتحرر الأرواح من الأجساد، ذلك أنني بمعرفة ذلك أصبح أكثر تأكيداً بوضوح من أنا، وما أنا مقبل عليه، لأنني اعتقدت أنني سوف أغادر هذه الحياة وشيكاً، ثم ماالذي أنا علي أن آمل به، وماالذي علي أن أخاف منه، وذلك بهدف أن أنال قدر مايمكنني من عطف الرب، وعندما كنت أتقصى في هذه الأوضاع المتقلقلة، وبرغبة مني حتى أحقق هذا، ثابرت دونما انقطاع على التوجه بالدعاء، أحيانا إلى ربنا مخلص العالم، وأحيانا أخرى إلى العذراء المجيدة، إنما أملت في أن أنال تلبية لطلبي التقوي، بشكل خاص من خلال شفاعة القديس نيقولا المعترف الذي هو، الأعظم تقوى وقداسة، ورأيت في احدى الليالي مع دنو بداية الصوم الكبير، الذي انقضى مؤخراً، وأنا نائم قليلاً، قد ظهر لي شخص مبجل، وكله بهاء، وقد خاطبني بلطف زائد، بما يلي:« أيها الابن الأعظم محبة، خشوعك عظيم في الصلاة، ولقد امتلكت مثابرة عظيمة في مقصدك، ولن تكون أهداف صلاتك المستمرة، من دون ثمار من رحمة المخلص، وكن منذ الآن هادئاً في تفكيرك، وتابع الخشوع في صلاتك، لأنه من دون شك سوف تحقق على الفور طلب التماسك»، ولدى الفراغ من حديثه هذا، اختفى شخص المتحدث، واستيقظت».

كيف رأى الراهب نفسه عندما كان يعبد صليب ربنا أن هذا الصليب أصبح دموياً

« وصحيح أنني استيقظت، غير أنني حافظت على رؤية هذه الرؤيا في عقلي باستمرار، لمدة ستة أسابيع انقضت، وعندما نهضت في ليلة

العشاء الرباني، من أجل الصلاة الليلية، وتلقيت— كما تذكرون— القصاص على أيديكم، شعرت في وسطه بحلاوة في الذهن عظيمة تغلغلت في جسدي، حتى أنني في اليوم التالي شعرت أنه ممتع جداً البكاء من دون توقف، كما رأيتموني بأعينكم، وفي الليلة التالية بعد هذه، التي كانت ليلة الاستعداد، غرقت في نوم هادىء، لدى اقتراب ساعة النهوض للصلوات الليلية، ثم إنني سمعت بعض الأصوات، إنما بوساطة من أوصلت إلى أذني، أنا لاأدري، والذي أدريه أنها قالت:« انهض، واذهب إلى المصلى، واقترب من المذبح المكرس لعبادة القديس لورانس، وستجد خلف ذلك المذبح صليباً، هو الذي جرت عادة الدير بعبادته في يوم الاستعداد، وإنك مالم تفعل ذلك، من غير الممكن انجاز أي شيء وتحقيقه من قبلك في اليوم التالي، لأنه قد بقيت أمامك رحلة طويلة، وبناء عليه تعبد صليب ربنا في تذكر له نفسه، وقدم قربانا من قلب متواضع ونادم، واعلم بشكل مؤكد أن تقدمتك الصادرة عن تقواك سوف تكون مقبولة لدى الرب، وأنك سوف تبتهج بعد ذلك ابتهاجاً عظيماً بغناها»، وأفقت بعد هذا من النوم، وذهبت— كما بدا لي— مع الرهبان، لسماع الصلاة الليلية، التي كانت قد بدأت، وقابلت في ردهة الكنيسة رجلاً مسناً، مرتدياً ثياباً بيضاء، وكان هذا هو الذي تلقيت منه في الليلة المتقدمة القصاص، ثم إنني أشرت إليه إلى العصا المعتادة، ليقدم لي قصاصاً، الذي من أجله ذهبنا إلى بيت مجمع الكهنة، وبعدما نفذ مطلبي، عدنا إلى المصلى، ثم إنني ذهبت بمفردي إلى المذبح الذي ذكر لي أثناء نومي، فخلعت حذائي، وزحفت على ركبتي، وقصدت المكان الذي أخبرت أن فيه يمكن العثور على صليب مخلصنا، وحسبما كنت قد أخبرت قد وجدته هناك، وإثر ذلك غرقت كليا بالدموع، وألقيت بنفسي على الأرض بطولي، حتى أستطيع تعبده بخشوع أعظم، وعندما كنت راكعاً أمام تمثال المصلوب، وكنت أقبله على الفم والعينين، شعرت ببعض النقاط تتساقط بلطف على جبيني،

ولدى تحريكي لأصابعي، اكتشفت من لونهم، أنهم دم، وعلاوة على ذلك رأيت الدم يتدفق من جانب المصلوب على الصليب، وكأنه يتدفق من عروق انسان حي، عندما يجري قطعها لترك الدم يسيل، وأمسكت الدم بيدي، ولست أدري مقدار النقاط التي تساقطت، وبهذه الدماء قمت بخشوع بمسح عيني، وأذنيّ، وفتحات أنفي، ولاأعرف إن كنت قد أذنبت بعد هذا، فقد ابتلعت نقطة واحدة، وفعلت ذلك أثناء انفعالي، أما النقاط الأخرى التي أمسكتها بيدي، فقد قررت الاحتفاظ بها».

كيف انفصل هذا الراهب نفسه عن الجسد ودخل المكان الأول للعقوبة

« وبعدما عبدت هكذا صليب ربنا، سمعت بعد وقت خلفي، صوت الرجل المبجل، الذي كنت قد تلقيت منه في الليلة الفائتة، القصاص، ثم انني تركت حذائي وعصاي قرب المذبح، ولاأدري كيف أنني ذهبت إلى مجمع الكهنة، وبعدما تلقيت القصاص، ست مرات متفرقات، كما كنت قد فعلت من قبل، تلقيت التحليل، وقد جلس هذا الرجل العجوز في كرسي راعي الدير، فسجدت بنفسي أمامه، ثم إنه اقترب مني، وقال لي الكلمة التالية فقط:« اتبعني»، وبعدما أقامني، أمسك بيميني بثبات، إنما بلطف، وقد بقينا طوال الوقت ويدينا متشابكتان مع بعضهما، وحرمت في ذلك الوقت من جميع مشاعري الجسدية والعقلية، ثم إننا سرنا على طريق سوي ناعم باتجاه الشرق، حتى وصلنا إلى قطاع واسع من المنطقة، مخيف أن تنظر إليه، له وضع مستنقع، قد تشوه بصلصال كثيف، وكان في ذلك المكان حشد كبير جداً من الناس، أو الأرواح، لايمكن لأحد تعدادهم، وكانوا معرضين لأنواع من العذاب لايمكن وصفها وذكرها، وكان في ذلك المكان حشد كبير من كلا الجنسين، من كل وضع، واحتراف، ومرتبة، وجميع

أنواع المذنبين الذين أدينوا وحكم عليهم بالتعذيب، وذلك وفقاً لتنوع حرفهم، ودرجات آثامهم، ورأيت خلال فسحة امتداد ذلك السهل، الذي من غير الممكن وصول نظر الانسان إلى أطرافه وشاهدت حشوداً من التعساء قد جمعوا على شكل أرتال، وصنفوا إلى فئات وفقاً للتشابه بين جرائمهم واحترافاتهم، وكانو جميعاً يحترقون بشكل متساوي، مع أن صرخاتهم كانت متنوعة، ولاحظت بوضوح بين جميع الناس الذين شاهدتهم، الذين يعاقبون لأنواع من الذنوب، كل حسب طبيعة ذنبهم، كانت درجة عقوبتهم، حيث كانوا يكفرون وقتها عن ذنوبهم وجرائمهم، أو كانوا— بفضل وساطة آخرين— قد وضعوا في مكان النفي، وحصلت العقوبة على اذن بتنفيذها في منطقة سماوية، هذا ورأيت بعضهم يتحملون عذاباً أشد قسوة بعقل هادىء، وكأن شعوراً بالمثوبة قد أعدّ من أجلهم، ولذلك كانوا يفكرون باستخفاف بآلام العذاب المرعب الذي كانوا يعانونه، ورأيت بعضهم يقفز فجأة، من مكان تعذيبهم، ويأخذون طريقهم بقدر مايستطيعون من سرعة إلى أطراف ذلك المكان، وبعد احتراقهم بشكل مخيف، ولدى ظهورهم من البؤر، يركض المعذبون نحوهم بمذاري، ومشاعل، وكل نوع من أنواع أدوات التعذيب، ويعيدونهم إلى مواضع تعذيبهم مجدداً، لينزلوا بهم كل نوع من أنواع العذاب، ومع أن هذا كان يصاب بجراحة، وهذا يطعن حتى القلب بضرباتهم، إنهم كانوا يعودون بعد ذلك، ويتدرجون من أقسى أنواع العذاب، إلى أقسى أنواع الآلام، لأن بعضاً من الأكثر آثاماً هناك يبقون في موت شنيع، دون المرور بمزيد من العذاب الشديد، وكان كل منهم يعامل وفقاً لما عملوه من منافع أو اقترفوه في افعالهم الماضية، أو بالأعمال الجيدة لرفاقهم، والذي رأيته كان أنواعاً لاحدود لها من العذاب، فبعضهم كان يجري شيه أمام النار، وكان آخرون يجري قليهم بالمقالي، وكانت مسامير حمراء لشدة الاحتراق تدفع إلى داخل بعض عظامهم، وجرى تعذيب بعضهم في نتن مرعب في حمامات من

القار والكبريت، ممزوجين برصاص ذائب، وبنحاس وبأنواع أخرى من المعادن، وكانت هناك هوام ذوات حجوم هائلة لها أسنان مسمومة يلتهمون بعضهم بها، وجرى وضع بعضهم من ذوي المراتب العالية على خوازيق لها أشواك نارية، وقد مزقهم المعذبون بمساميرهم، وجلدوهم جلداً مبرحاً، ومزقوهم بأنواع من الآلام الرهيبة، ورأيت في ذلك المكان كثيرين كانوا معروفين بالنسبة لي، وكانت لي علاقة وثيقة بهم أثناء هذه الحياة، رأيتهم يتعرضون لأنواع من العذاب، وكان بعضهم أساقفة، وبعض آخر رعاة ديرة، وبعض من مراتب أخرى، بعضهم من رجال اللاهوت، وكان بعضهم في مناصب علمانية، وبعضهم ذوي مناصب ديرية، فلقد رأيت كل هؤلاء، ورأيت الذين كانوا أقل دعماً بامتيازاتهم الشرفيه في الحياة الماضية، الأكثر لطفاً في تعرضهم للعذاب الذي أوقع بهم، وأخبركم في الحقيقة أنني أعرف إن مالاحظته بشكل خاص، هو أن جميع الذين عرفتهم بأنهم كانوا قضاة للآخرين، أو أساقفة في هذه الحياة، كانوا يتعذبون أكثر من الآخرين، وذلك مع درجات متصاعدة من الشدة، ويبدو أنه ممل بالنسبة لي الحديث عن شدة العذاب الذي تلقوه وهم يستحقونه، أو عن الذي عانوا منه، وكم كانت الأمور واضحة بالنسبة لي، وليكن الرب شاهداً عليّ، أنني لو رأيت واحداً، كان قد قتل جميع رفاقي وأقربائي، وحكم عليه بمواجهة مثل ذلك العذاب، أنا على استعداد لمواجهة الموت— إذا كان ذلك ممكنا— الدنيوي ألف مرة، من أجل انتزاعه من ذلك العذاب، لأن جميع مارأيته هناك من تعذيب، فاق جميع معايير الآلام، والحدة، والتعاسة».

حول المكان الثاني للتعذيب في المطهرةوأنواع العذاب

« بعدما تجاوزنا مكان التعذيب، مررت وأنا ودليلي وتابعنا سيرنا دون التعرض للأذى، مثلما فعلنا في أماكن التعذيب الأخرى، التي

سأتحدث عنها فيما يلي: ووصلنا بعد ذلك إلى مكان آخر للتعذيب، وقد انفصل المكانان عن بعضهما بجبل لامس بارتفاعه السحاب تقريباً، وقد عبرنا قمته بسهولة، وسرعة، وكان يوجد في الجانب الأقصى لهذا الجبل واد عميق ومظلم، محاط من كل جانب بشعاب من الصخور العالية، لايمكن فوقها للنظر أن يمتد، ويوجد في قعر الوادي نفسه بعضاً من المياه، لاأعرف إن كانت نبعاً أم آسنة، وهذه المياه لها مساحة واسعة جداً ومرعبة بسبب نتانتها، وهي تصدر بشكل دائم أبخرة ذات ألوان لاتحتمل، ويصدر جانب الجبل المطل على الجهة الأولى من البحيرة ناراً تصل إلى السماء، ويوجد في الجهة المرتفعة المقابلة من التلة نفسها برد هائل، سببه الثلج، والبرد، والعواصف الهوجاء، إلى حد أنني اعتقدت أنني لم أشهد من قبل أي شيء مرعباً ومزعجاً من البرد مثله في ذلك المكان، والمنطقة الواقعة فوق الوادي، واحتلت جوانب الجبلين، اللذان يحملان هذين المظهرين المرعبين للحر والبرد حشود من الأرواح، عددها من الكثرة مثل نحل في أيام طيرانها، وعذاب هذه الأرواح بشكل عام، هو رميها في البحيرة الآسنة أولاً، ثم في وقت آخر، لدى خروجها من هناك، يجري التهامها من قبل لهب هائل ليتصدى لها هناك، وأخيراً بعد أمد من قبل كرات متحركة من النار، وكأنها شهب خارجة من أتون، حيث كان يطوح بها نحو العالي، ثم تسقط إلى قعر الشاطىء الآخر، ثم كانت تعاد ثانية إلى زوابع الرياح، وبرد الثلج، وصقيع البرد، ثم يرمى بها من هناك، وأثناء طيرانها بسبب عنف العواصف، كان يلقى بها ثانية في نتانة البحيرة، والنيران الملتهبة بغضب، وجرى تعذيب بعض الأرواح بالبرد، وبعضها الآخر بالحر، لمدة طويلة، وأبقي بعضها لمدة طويلة في البحيرة الآسنة، ورأيت آخرين مثل زيتون في المعصرة، قد عصروا وتمازجوا معا في وسط لهيب غير متوقف، وهو أمر مرعب حكايته، وكانت أوضاع الذين كانوا يعذبون هناك وقتذاك كما يلي: لقد أرغموا من أجل انجاز طهارتهم على المرور خلال وجه

تلك البحيرة من البداية حتى النهاية، ولقد كان هناك— على كل حال— درجات كبيرة من التميز بين أولئك الذين كانوا يتعذبون في هذا المكان، ذلك أن بعضهم قد سمح لهم بمرور سهل وسريع، وفقاً لفضائلهم ، والمساعدة التي قدمت لهم بعد موتهم، في حين جرت عقوبة الذين كانوا من المقترفين لجرائم أعظم، أو نالوا مساعدة أقل بوساطة قداسات رفاقهم، بشكل أكثر حدة، وبمدة أطول، لكنهم جميعا، كانوا كلما اقتربوا أكثر من نهاية البحيرة، صاروا أقل شدة في التعرض للعذاب المتبقي، ذلك أن الذين وضعوا في البداية شعروا بالعقوبة والعذاب بحدة أكبر، علماً بأنهم لم يتألموا سواء، وأخف أنواع العذاب في ذلك المكان، كانت أكثر وحشية من أشد أنواع العذاب العائدة للمكان الأول الذي رأيناه من قبل، ورأيت في مكان العذاب هذا، وعرفت عدداً أكبر من المعارف، ممن رأيته في المطهرة الأولى، وفي الحقيقة، لقد تحدثت مع بعضهم، وكان بين من ميزته هناك صائغ كان لي معروفاً بشكل جيد في الحياة، وعندما رآني دليلي أُمعن النظر إليه، سألني عما إذا كنت أعرفه، ولدى معرفته بأني كنت أعرفه بشكل جيد قال لي:« إذا كنت تعرفه، تحدث إليه»، ونظرت الروح إلينا، وظهر أنها عرفتنا بوساطة دلائل من السرور لايمكن وصفها، وقدمت الشكر إلى الرجل الذي كان دليلي، وبيدين ممدودتين، وبانحناءات لجسدها تعبدته، وقدم الرجل له الاجلال وشكره كثيراً لتلطفه بالحديث إليه، ولدى صراخه المتوالي قائلاً:«ارحمني يا نيقولا المقدس» سررت لاعترافه باسم شفيعي القديس نيقولا، الذي أرجو أن أنال منه الخلاص في كل من الجسد والروح، ولدى سؤالي بعد هذا الصائغ كيف مضى هكذا سريعاً خلال العذاب الوحشي، رأيته يتألم، ثم أجاب قائلاً:« أنت ياصديقي، وجميع معارفي، الذين رأوا خلال حياتي، بأنني قد حرمت من تأييد جميع الايمان المسيحي، مثل الاعتراف، وقربان الموت، وقد عددت من قبل المسيحيين رجلاً ضائعاً، دون أن يعلموا برحمة مولاي، الذي هو معي، وأعني

بذلك القديس نيقولا، الذي لم يتركني، أنا عبده التعيس، أعاني من موت مدان سرمدي، لأنه الآن، ودوما، منذ أن جرى تعييني لمكان العقوبة هذا، وعندما كنت أعاني تحت العذاب الشديد، جرى انعاشي مرارا بوساطة زيارة رحمته، هذا ربما أنني كنت في عملي بالذهب، الذي هو حرفتي، قد اقترفت كثيراً من أعمال الغش، وأقوم الآن بأقسى أنواع التكفير، فقد قذفت مراراً وسط كومة من المال المحترق، واللهب الذي لايحتمل، وغالبا ماأرغمت بفم مفتوح على ابتلاع هذه النقود كلها، وعلاوة على ذلك غالباً ماأرغمت على تعداد هذه النقود والشعور بأن يدي وأصابعي التهمت واحترقت بوساطتهم»، ثم إنني سألته، هل يستطيع الناس بوساطة أية وسيلة مخلصة تجنب مثل هذا العذاب المرعب، وعلى هذا أجاب وهو يتنهد:« إذا ماكتب الناس بأصابعهم يوميا كل واحد على جبينه، وعلى الأجزاء القريبة من قلوبهم» « يسوع الناصري، ملك اليهود»، فإن عناصر الايمان هذه سوف تحفظه من دون شك وتبقيه دون أن يصاب بأذى، وهذه الأماكن ذاتها سوف تشع بعد الموت بضوء رائع، هذا وأشياء أخرى كثيرة قد سمعتها منه، لكن دعونا الآن نسرع إلى وصف أشياء أخرى، وليكن فيما قيل كفاية».

مكان التعذيب الثالث والأنواع المضاعفة من العذاب

« ثم إنني قمت مع دليلي بمغادرة هذا الوادي، الذي يعرف حقاً باسم وادي الدموع، وهو الذي صرنا إليه في المكان الثاني، ووصلنا إلى سهل واسع قائماً في الأسفل في قلب قعر الأرض، وهو مابدا أنه لايمكن الوصول إليه، إلاّ لشياطين التعذيب، والأرواح المُعَذَّبة، وكان وجه هذا السهل مغطى بشكل فوضوي كبير ومخيف، ممزوج بدخان الكبريت، وبسحب من النتانة لايمكن تحملها، مع لهب قار أسود، وهذا كله كان متصاعداً من جميع الاتجاهات، وقد اختلط بطريقة مرعبة، خلال جميع تلك الفسحة الفارغة، ولقد امتلأ وجه المكان بحشود من

الهوام، مثل إمتلاء ساحات البيوت وتغطيتها بالطفح والاندفاعات، وهؤلاء مرعبين فوق التصور ولهم أحجام عملاقة وأشكال مشوهة، مع وجود فتحة بين الفكين، وكانوا ينفثون بنار مروعة من فتحات آنافهم، فتمزق حشود المخلوقات التعيسة بشراهة، حتى أنه مامن أحد كان ينجو منها، والشياطين تركض في جميع الاتجاهات، مغضبة مثل مخلوقات مجنونة، فتستولي على المخلوقات التعيسة، وتقوم على الفور بتقطيعها إلى قطع، قطع بمخالبها النارية، هذا حينا، وحينا آخر تمزق جميع أجسادها وتفصل اللحم عن العظم، ثم تلقيهم في وقت آخر في النار، وتذيبهم مثل إذابة المعادن، ثم تعيدهم على شكل لهب محترق، واعلموا— يشهد الرب— أنني لاأذكر شيئاً، أو ما أذكره قليلاً عن عذابات ذلك المكان، لأن الرب وحده يعرف، أنني رأيت في تلك الفسحة الضيقة من الوقت، هؤلاء التعساء من المخلوقات، قد دمروا بمائة نوع، أو أكثر، من أنواع العذاب ثم أعيدوا على الفورمجدداً، ومجدداً تحولوا إلى لاشيء تقريباً، ثم أعيدوا مجدداً، لأن حياة ضائعة تسببت في تعذيبهم في ذلك المكان، ونظراً لتعدد أنواع العذاب، لم تكن هناك نهاية لآلامهم، لأن لهب تلك النار هو ملتهم إلى حد أنك تظن أن النار العادية أو الحمى هي دافئة، مقارنة بها، وجمعت إلهوام الميتة والممزقة إلى قطع، وتكدست في أكوام تحت التعساء، تملأ كل شيء بنتانة لاتحتمل، بشكل فاقت به جميع أنواع الآلام الأخرى، ويبقى ماهو أكثر مقتاً وحدة من كل شيء، هو ماستتحدث عنه؛ لأن جميع الذين عذبوا هنا، كانوا مذنبين بحياتهم بشرور غير مذكورة لها قيمتها عند المسيحيين، أو حتى عند الكفار أو المشركين، فقد جرت مهاجمة هؤلاء بشكل مستمر من قبل تنينات لها مظهر ناري، ومرعبات بشكل لايمكن وصفه، وهم لايعبأون بخصومهم ويقترفون عليهم الجرائم الملعونة، التي أذنبوها وهم على الأرض، وتتوالى صرخاتهم المخيفة حتى يغشى عليهم، ويظهرون أنهم موتى، ووقتها يعودون ثانية، ويتعرضون لعذابات

جديدة، وإنني أرتجف وأنا أحكي ذلك، وأنا مربك إلى أقصى الحدود تجاه قذارة جرائمهم، ذلك أنه حتى ذلك الوقت لم أسمع ولم أفكر أنه يمكن لكلا الجنسين أن يفسدوا بمثل هذه القذارات، أو الخزي، وهناك أعداد لاتحصى من الحشود التعيسة جداً، بشكل محزن جداً أن تأسف عليها، وأشكال الكثيرين في ذلك المكان، أنا لم أرها ولم ألاحظها، لأنني كنت مغلوباً بالرعب من الحجم الهائل للتعذيب، والقذارة، ووساخة النتانة، وكان ذلك مضايقاً إلى أبعد الحدود، حتى أنني لم أستطع الوقوف هناك للحظة واحدة، أو أن أنظر إلى ماكان يجري هناك، وحدث أخيرا أن صرخ أحدهم وسط الجلبة بصوت مرتفع:« واأسفاه، لماذا أنا لم أتب»؟ ولقد كان أنينهم مرتفعاً إلى حد أنه يخيل إليك، أن جميع المتألمين في العالم كانوا ينوحون هناك».

حول أحد المحامين وعذابه

« ومع أنني تجنبت قدرما استطعت النظر إلى شخص أثناء مروري هناك، لم أتمكن الهروب من رؤيته، وكان واحداً من رجال الدين، وكنت قد عرفته فيما مضى، وقد عدّ أثناء حياته رجلاً بارعاً جداً، وكان واحداً من الذين تولوا أعمال المحاماة، والتعامل مع القوانين، ولهذا السبب كان بالنسبة للموارد اللاهوتية، يغدو يومياً أغنى من البقية، ولقد دهشت تجاه حجم آلامه، ولدى سؤالي له عما إذا كان يتوقع الحصول على رحمة ما، أجابني وهو يصرخ« واأسفاه، واأسفاه، والويل لي، إنني أعرف، وأنا أعرف، أنني لن أتلقى رحمة في هذا الجانب من يوم القضاء، ثم بعدئذ أنا غير متأكد، لأنني منذ أن أخضعت إلى هذه الآلام، فإن عذابي يزداد سوءاً، ويجرني من سيء إلى أسوأ»، فقلت له: لماذا لم تقم أخيراً بالاعتراف بذنوبك، وتبت»؟ فأجابني؟« لأنني كنت آمل بالشفاء، فالشيطان قد ضللني، وكنت أخجل من الاعتراف بمثل تلك الجرائم المهينة، خشية أن أبدو غير محترم أمام الذين بدوت أمامهم مشهوراً

ونبيلاً، ولقد اعترفت بواحد من أخف آثامي إلى راهب، ولدى سؤاله لي عما إذا كنت واعيا ومتذكرا لذنوب أخرى، طلبت منه وقتها أن يتركني، ووعدت بأن أدعه يعرف، إذا ماعاد أي منها إلى ذاكرتي، وعندما غادر، وابتعد قليلاً، شعرت بنفسي أنني أموت، وعندما أُعيد إليّ من قبل خدمي وجدني أنني قدمتّ، ولهذا مامن واحد من أنواع العذاب الألف التي أتحملها يوميا يعذبني بقدر عمل تذكر آثامي، لأنني أرغمت بالفعل على أن أكون عبداً لدناءة ضعفي السالف، لأنه بالإضافة إلى عظمة هذه العقوبة التي لايمكن وصفها، أنا مسحوق بعار لايمكن تحمله، عندما أظهر على أنني واحد لعين بسبب هذه الآثام الكبيرة»، وفي اللحظة التي كان يتحدث بها هكذا إليّ، رأيته يتعذب بطرائق لاتعدّ ولاتحصى، وقد تناقص في وسطها حتى تلاشى وأصبح لاشيء، وذاب بقوة الحرارة، مثل ذوبان الرصاص، وسألت أنا أيضا القديس نيقولا، الذي وقف إلى جانبي، عما إذا كان هذا العذاب يمكن أن يخفف بأي نوع من العلاج، فأجابني:« عندما يحل يوم الحساب، وقتها سوف يجري تنفيذ إرادة المسيح، لأنه هو وحده يعرف قلوب الجميع، وعندها هو سوف يعطي إلى الجميع جزاء عادلاً»، وفيما بعد، عندما عدت إلى جسدي، جاء ذلك الكاهن الذي إليه اعترف ذلك المحامي بذنوب خفيفة، ودعا الرب في حضور كثيرين وعدّه شاهداً على أن ماقلته كان صحيحاً، لأن مامن أحد عرف هذه الأشياء، إلاه هو نفسه، ولقد أسقطت ذكر عذاب الكثيرين ممن شاهدتهم، خشية أنني إذا ماتكلمت أكثر منهم، سوف أسبب الغثيان إلى قرائي، وليكن في هذه الاختيارات القليلة كفاية».

الرؤيا التي رآها الراهب نفسه حول المجد السرمدي للمباركين

« أما وقد قمنا بالوصف الجزئي للأشياء التي رأيناها من أماكن العذاب والعقوبة للتعساء، بقي علينا أن نتحدث عن مواساة الذين

كانوا في الراحة، وعن المجد السرمدي للمباركين، الذي رأيناه بأعيننا، فبعدما سرنا لوقت طويل، وسط مختلف أنواع العذاب التي قمت بذكرها أعلاه، وبعدما رأيت مختلف أنواع آلام التعساء، ولدى متابعتنا طريقنا نحو المناطق الداخلية، بدأ الضوء بالظهور على درجات بشكل مريح أكثر، وهنا كانت الروائح جميلة وطيبة، وهنا كان السهل الغني مزدهراً بمختلف الأنواع الكثيرة من الورود، التي منحتنا سروراً لايمكن وصفه، ووجدنا في هذا السهل آلافا لاتحصى من الناس أو الأرواح، الذين بعدما عبروا من خلال عقوباتهم، كانوا يتمتعون هناك بالراحة السعيدة للمباركين، وكان الذين وجدناهم في الشطر الأول من هذا السهل، يرتدون أردية بيضاء بالفعل، غير أنها لم تكن لامعة، ومع ذلك لم يظهر عليها أي سواد أو بقع، مع أنها لمعت بأدنى درجات البياض، ورأيت بين هؤلاء عدداً كانوا معروفين لدي من قبل، وقد لاحظت بينهم راعي دير قدم مؤخراً من أماكن العذاب، وقد لبس ثياباً غير ملطخة، مع أنها لم تكن كثيرة اللمعان، ورأيت هناك ولاحظت واحداً من رؤساء الرهبان، كان بعد تحريره من جميع العقوبات يتمتع بسلام سعيد مع أرواح المستقيمين، وكان يأمل بالتأكيد بالرؤيا اللاهوتية التي كان على وشك نيلها مكافأة له، ورأيت في ذلك المكان نفسه، كاهنا كان قد امتلك نعمة الوعظ متحدة مع مثالية الحياة الجيدة، وقد حرر من الذنب كثيراً من الناس ليس فقط في أبرشيته التي كان مسؤولاً عنها، بل أيضاً من الذين كانوا بعيدين عنه، وكذلك بتعاون الرب، وبإضفائه مجداً لايمكن وصفه على كثيرين، مثلما أضفاه عليه نفسه».

مكان الراحة الثاني ومجد الساكنين هناك

ولدى متابعتنا السير من هناك نحو داخل منطقة الحلاوة هذه، ووضوح الضوء، وطيب الرائحة التي انتشرات أكثر، وقد عدّ جميع الذين سكنوا في هذا المكان بمثابة سكان للقدس العلوية، وكانوا قد

عبروا خلال عقوباتهم بسهولة كبيرة جداً، لأنهم كانوا الأقل مشاركة بشرور العالم، والذي رأيناه لدى متابعتنا السير، لايستطيع اللسان التعبير عنه، كما أن الضعف الانساني غير مؤهل لوصفه، لأن من الذي هو جدير أن يبين بالكلمات، كيف أنه وسط الأرواح المباركة التي هي آلاف لانهاية لها قد وقفت هناك، وكأنها واقفة حول آلام الرب ذات المهابة المقدسة، والمخلص التقي للبشرية نفسه ظاهر وكأنه معلق على الصليب، والدماء تسيل من جسده كله بسبب الجلد، والاهانة بالبصاق، والتتويج بالشوك والمسامير قد دفعت إلى داخله، وقد طعن بالرمح، بينما تدفق نهر من الدماء فوق يديه وقدميه، وسال الدم والماء من جانبه المقدس، وإلى جانبه وقفت أمه، لكن الآن ليست قلقة ولاحزينة، بل مسرورة تنظر بملامح هادئة جداً، فهذا المشهد غير ممكن وصفه، فهل يمكن لأحد، في الحقيقة، تخيل بأية رغبة ركض الجميع نحو هذا المشهد، وأية تقوى توفرت بين الذين شاهدوه، وأية خشوع كان هناك، وكم كانوا كثرة الذين كانت مؤشراتهم تعبر عن الشكر لهذه النعمة العظيمة؟ ولدى تفكيري بعمق أكبر حول هذه الأشياء، لست أدري فيما إذا كان الحزن أو الخشوع هو الذي ضلل عقلي غير السعيد، ذلك أن الدهشة والاعجاب حرماني من الشعور، وكان الخشوع عظيماً إلى حد توجب معه قهر الشيطان، بهذا الازدراء، وأن تهزم جهنم، وتحرم من أسلحتها، وأسلابها، وأن يتعافى الانسان الضائع، وأن يجري انتزاع فرائس الشياطين من بيت جحيمهم السام، وأن يوضعوا في السماء بين جوقة الملائكة، وأشياء كثيرة أنا رأيتها هناك وسمعتها، أخشى من الحديث عنها، حتى لاتبدو غير معقولة ولايمكن تصديقها من قبل كثيرين، وأخيراً، بعد امضاء وقت طويل في النظر إلى هذه الرؤيا المباركة نفسها، اختفت فجأة، وفي المكان الفارغ، حيث كانت هذه المعجزة المجيدة موجودة، عاد الجميع وهم مسرورين، ورجع كل واحد إلى مكانه المحدد، وتبعت دليلي، وأنا ممتلىء بالإعجاب، إلى المناطق الداخلية، إلى

أماكن سكنى المباركين، وهنا كان بريق الذين تجمعوا، وهنا كانت الروائح الطيبة المستنشقة، وهنا توفرت أيضاً تسابيح الذين حمدوا الرب.

مكان السرور الثالث ورؤى الرب

وبعد السير لمسافة، ومع ازديادطيب الأمكنة أمامنا، رأيت مابدا جداراً من الزجاج الصافي(الكرستال) وكان عالياً إلى درجة أن مامن انسان كان يمكنه أن ينظر من فوقه، وإلى امتداد لانهاية له، ولدى اقترابنا منه، رأيته يشع بضوء هو الأكثر لمعانا، وكان يصدر عنه من الداخل، ورأيت أيضاً مدخله مفتوحاً، ومعلما بشارة حماية الصليب، وقد اقترب من هناك حشد كان قلقاً جدا للدخول لأنه صار عند المدخل، ورفع الصليب الذي كان في منتصف الباب، نفسه عالياً، وبذلك فتح مدخلاً للذين اقتربوا، ثم إنه سقط ثانية ومنع دخول الذين رغبوا بالدخول، ولكم كان سرور الذين سمح لهم بالدخول، عظيماً، وكم كان تشوق الذين بقيوا في الخارج ينتظرون الرفع التالي للصليب، فهذا كله مالا أستطيع وصفه، فهنا وقف دليلي معي لبعض الوقت، ولكن أخيراً تقدمنا نحو الأمام، حيث كان الصليب قد ارتفع، وانفتح المدخل لنا للدخول، ودخل مرافقي من دون صعوبة، وكنت أنا خلفه، وأثناء ذلك نزل الصليب فجأة على يدي، وكاد يمنعني من اتباع دليلي، ولدى رؤيتي ذلك بت مذعوراً جداً، لكنني سمعت الكلمات التالية تصدر عنه حيث قال:« لاتخف، وضع ثقتك فقط بالرب، وادخل بسلام»، ولدى سماعي هذا عادت إليّ طمأنينتي، وعندما منحني الصليب مدخلاً، دخلت، ولكم كان الاشعاع هائلاً، فالضياء لايمكن تصوره، ولكم كان الضوء قوياً الذي ملأ جميع تلك الأماكن، لايسألني أحد عن ذلك، لأنني غير قادر عن التعبير عنه في الكلمات، كما لايمكنني استرجاع ذلك في ذاكرتي، فلقد أزاغ ذلك اللمعان الناعم والفخم ناظري، إلى حد أنني لم أستطع التفكير بشيء يمكن مقارنته به،

مما كنت قد رأيته من قبل، لأن ذلك اللمعان لايمكن تصوره، فهو كما كان لايعمي نظر العين، بل بالحري يجعل هذا النظر أكثر حدة، وعندما نظرت إليه، مامن شيء واجه ناظري سوى ضوء الجدار الزجاجي النقي(الكريستال) الذي تقدم ذكره، علاوة على ذلك كانت هناك من أسفله حتى أعلاه سلالم ذوات جمال رائع، جرى إعدادها وفق طريقة تتمكن بوساطتها حشود الأرواح المسرورة من الصعود حالما تدخل من الباب، ولم يتعب الذين صعدوا، ولم يكن هناك مصاعب ولا تأخير بالصعود، لأن الدرجة الأعلى كانت دوما أسهل بالصعود من صعود الدرجة التي كانت قبلها، وعندما وجهت عينيّ نحو الأعلى شاهدت مولانا مخلص البشرية، جالساً على عرش المجد، على شكل انسان، وبدا لي أنه مابين خمسمائة إلى سبعمائة أرواح مخلوقات مباركة، الذين صعدوا أخيراً عبر الطريق المتقدم ذكره، إلى مكان العرش، حيث تحلقوا من حوله على شكل دائرة، مع شارات تقديم الشكر له، وتعبدوه، هذا والذي هو واضح بالنسبة لي، هو أن ذلك المكان الذي كنت قد رأيته هو أنه لم يكن سماء السموات، حيث سوف يظهر مولى الموالي في صهيون، كما هو في جلالته، ومن هناك تصعد الأرواح إلى تلك السماء المباركة بسبب وجود الإله الدائم، ويأتي ذلك بعد إزالة جميع المصاعب والتأخيرات، وشعرت أنا— على كل حال— في نفسي بفرح وسرور عظيمين، وبكثير من السعادة، والبهجة، فمهما حاولت العبقرية الانسانية التعبير عن سرور وفرح قلبي وما شعرت به، سوف تخفق».

كيف أعيد الراهب المذكور إلى جسده

« وبعدما رأيت هذا كله وسمعته، وأشياء أخرى لاعدّ لها، تحدث القديس نيقولا إليّ قائلاً:« انتبه يابني، لقد حصلت الآن على مارغبت به، وذلك بقدرما هو ممكن لك، فلقد رأيت من جانب شرط الحياة المقبلة، ومخاطر المذنبين، وعقوبات الأشرار، وراحة المتطهرين الأنقياء،

وسرور الذين سوف أخيراً يصلون إلى بلاط السماء، وأسرار آلام ربنا، وعليك الآن العودة إلى صراعاتك المميتة، ولسوف تتسلم، إذا ما واظبت على خوف الرب، الأشياء التي رأيتها بعينيك، وأكثر من ذلك بكثير، إذا ماسعيت بجسد طاهر وبقلب برىء إلى انتظار يوم دعوتك الأخيرة»، وعندما كان يتحدث إليّ هكذا، سمعت فجأة لحناً رائعاً بعذوبته وكأنه صوت جميع نواقيس الدنيا، أو أن كل شيء موسيقي كان يصوت مع بعضه، وكان في هذا اللحن عذوبة رائعة، ومزيج متنوع من التناغم الشجي، ولست أدري هل الاعجاب بذلك للعظمة أم للعذوبة، وعندما كنت أصغي بتشوق لهذا اللحن غير الاعتيادي، كنت قد فقدت ذاكرتي ثم لقد وجدت نفسي ماأن توقف اللحن حتى فقدت رفقة دليلي، وعادت إليّ قوة جسدي، وعاد النظر إلى عيني وصرت قادراً على الرؤية، كما أن آلام مرضي السالف قد تدمرت، وقد تحررت أنا كليا من ضعفي، وجلست بينكم قوياً وصحيحاً، مع أنني قلق وحزين، وبعدما عدت إلى نفسي، وما أن سمعت من الرهبان بأن احتفال الفصح كان يقترب، حتى عددت تلك الموسيقى التي سمعتها هي علامة، على أنه حتى بين سكان السماء يجري الاحتفال بأسرار الخلاص البشري ببهجة وبفرح من قبل سكان السماء، وذلك مثلما عملت على الأرض من قبله، وهو الذي خلق السماء والأرض من لاشيء، وأعني بذلك يسوع المسيح، الذي ليكن إليه مع الآب والروح القدس جميع التشريف ومجد العالم بلا نهاية، آمين».

وسقط في هذه الآونة هنري أوف شامبين، الذي خلف غي ملكاً للقدس، من النافذة العليا في بيته، إلى الشارع، فاندقت رقبته، وقتل، ولقد كان ابن أخت لكل من ملكي فرنسا وانكلترا: فيليب ورتشارد، ذلك أنه كان ابن بنت لويس ملك فرنسا، والد فيليب، وهي الابنة التي جاءته من اليانور، التي كانت آنذاك الملكة زوجته، والتي تزوجت فيما

بعد من الملك هنري، والد الملك رتشارد، وبناء عليه عندما مات الملك المذكور، تطلبت بالضرورة أوضاع الأرض المقدسة ملكاً جديداً، وبحكم ذلك جرى باجماع من رجال الدين والناس واتفاق، انتخاب رجلاً فرنسياً لامعاً هو جون بريين، وكان رجلاً بارعاً في القتال، وعلى الفور جرى تتويجه ملكاً، وتقدمت شؤون المملكة تحت حكمه كثيراً.

ارسال الملك رتشارد رسلاً إلى روما للشكوى ضد رئيس أساقفة روان

عام ١١٩٧م، فيه كان الملك رتشارد في بور Bure في نورماندي، وكان يعاني من اضطراب عظيم لأن رئيس أساقفة روان قد وضع نورماندي تحت التعليق والحرمان من شراكة المؤمنين، فقد كانت أجساد الموتى ملقاة في ساحات شوارع المدن من دون دفن مما سبب رائحة نتن شديد بين الأحياء، ولذلك بعث وليم أسقف إيلاي، وكان مستشاره، مع أسقفي درم وليزكس Lisiex إلى بلاط روما ليترافعوا بقضيته ضد رئيس الأساقفة المذكور، لكن وليم أسقف إيلاي قد مات وهو على طريقه إلى روما، في بواتو، ودفن في الدير السسترشياني في دسبن Dispin في التاسع والعشرين من كانون الثاني، وتابع— على كل حال— الأسقفان اللذان كانا معه رحلتهما، ووصلا إلى روما، وعندما اجتمع الفرقاء بحضور مولانا البابا، وتم الاستماع إليهم بعناية، وقدّر مولانا البابا مع كرادلته، بعد مناقشة مستفيضة الأضرار والاضطراب الذي يمكن أن يلحق بالملك في نورماندي مالم يتم بناء تلك القلعة في أندلي، ونصحوا رئيس الأساقفة بالوصول إلى اتفاق سلمي مع مولاهم الملك، وأن يتسلموا منه تعويضاً كافياً، حسب تقدير رجال حكماء لما تمت خسارته، لأنهم أعلنوا إنه كان أمراً قانونياً تماماً لأي انسان كان قادراً أن يفعل مافعله ملك انكلترا، في تقوية الأجزاء الضعيفة من مملكته، حتى لايتعرض للخسارة أو الضرر من هناك، وعاد رسل

الطرفان مع شروط السلم هذه، وبذلك تمّ الحصول على نقض لقرار التعليق من شركة المؤمنين.

صيغة الاتفاقية التي عملت بين الملك رتشارد ورئيس أساقفة روان

كانت صيغة السلام والاتفاقية التي عملت بين ملك انكلترا، ورئيس أساقفة روان كما يلي:« رتشارد ملك انكلترا، بنعمة الرب، الخ: بما أن الكنيسة المقدسة هي قرينة الملك الأبدي، والمحبوبة الوحيدة من قبل الذي باسمه يحكم الملوك، ويمتلك الأمراء سلطاتهم، نحن نرغب في أن نعطيها المزيد من الاحترام والتقوى، ومزيداً من الثبات في اعتقادنا بأنه ليست الملكية فقط صادرة عن الرب، بل جميع القوى هي من عند الرب، ولذلك فإن كنيسة روان المقدسة، التي هي، كما هو معروف، الأعظم شهرة بين جميع ممالكنا، تستحق لأن نتشاور دوماً معها حول مصالحنا وفقاً إلى حاجات الوقت، والظروف الأخرى، ولذلك رأينا أنه من المناسب دفع تعويض من أجل تقدم وازدياد الكنيسة نفسها، التي هي أمنا، وبما أن بلدة آندلي، وبعض المناطق المجاورة الأخرى، العائدة إلى كنيسة روان لم تكن محصنة بما فيه الكفاية، وكان هناك باب مفتوح للعدوان من قبل أعدائنا والتغلغل في بلادنا في نورماندي، من خلال هذه الأماكن نفسها، فبتلك الوسائل يغيرون على المنطقة نفسها، ويلحقون الضرر بها بالنار والاغتصاب، وبوسائل حربية شريرة أخرى، ولذلك قام صاحب النيافة أبونا وولتر رئيس الأساقفة مع هيئة كهنة روان، بتقدير صحيح لخسائرنا في المنطقة المتقدم ذكرها، وبناء على ذلك تمت عملية مبادلة بين كنيسة روان وولتر رئيس الأساقفة من الجهة الأولى، وبيننا أنفسنا من الجهة الأخرى، وذلك فيما يتعلق بعزبة أندلي، كما يلي: لقد منحنا رئيس الأساقفة المذكور، بموافقة مولانا البابا سيليستين الثالث ورغبته، ومع موافقة هيئة كهنة روان، بشكل دائم

وتنازل لنا ولورثتنا عن عـزبة آندلي المتقدم ذكرها، مع قلعـة« الصخرة» الجديدة، والغـابة، وكل مـاهو متعلق بها، مع امتيـازاتها، وذلك باستثناء الكنائس، والحاجيـات للجنود، وباستثناء عـزبة فـريسـان Freisanas ومتعلقاتها، فذلك كله يحتفظ به رئيس الأسـاقفة المذكور وكنيسة روان، وله شخصياً ولـورثته، مع جميع امتيازاتهم، والاعفـاء من الجمارك، وهم بشكل مـوحـد إلى الأبـد، ومقـابل عن عـزبة آندلي المتقـدم ذكـرها مع متعلقـاتها، قـد منحنا، وتنازلنا تنازلاً أبدياً إلى كنيسـة روان، وإلى رئيس الأساقفـة المتقدم ذكـره، وإلى خلفائه، عن جميـع الطواحين التي نمتلكها بروان، أثناء عمل هذه المبـادلة، وذلك مـع جميع توابع المطاحن وأدوات الطحن من دون أي احتفـاظ بالأشيـاء العـائـدة للمطحنة أو للطحن وذلك مع جميع الامتيـازات والاعفـاء من الجمارك، وهو مـااعتـادوا أن يتملكوه أو يتوجـب لهم تملكه، ولن يكون قانونيـا السماح إلى أي انسان ببناء طاحون في ذلك المكان، مـن أجل إعاقة الطواحين المتقـدم ذكرها، عـلاوة على هذا لقـد منحنـا إليهم بلدتي ديبي Dieppe وبوسلي Bu-celes مع توابعهما وامتيـازاتهما، وكذلك عـزبة لوري Loures وغابة هاليمونت Haliermunt مع الحيـوانات البرية والمتعلقات الأخـرى والامتيـازات، ولسـوف يتملك رئيس الأسـاقفـة المتقـدم ذكـره والذين سيخلفـوه جميع هذه الأمـاكن بدلاً عـن عـزبة أندلي المتقـدم ذكـرها إلى الأبد، والشهود هـم التالية أسماؤهم.... وعملت هـذه المبادلة في روان، في سنة ١١٩٧م، وذلك في السنة الثامنة لحكمنا».

كيف حمل الملك رتشارد جسد القديس فاليري إلى نورماندي، وكيف أحرق هناك عدة سفن

وفي هذه الآونة أشير إلى الملك رتشـارد، أن سفناً قـد اعتـادت على القدوم من انكلترا إلى القديس فاليري Valery لجلب مؤن إلى ملك فـرنسـا وإلى أعـدائـه الآخريـن، وبناء على ذلك زحف إلى ذلك المكان،

وأحرق البلدة، ودمر الرهبان، وحمل تابوت القديس فاليري مع عظامه إلى نورماندي، وقد وجد في الميناء هناك بعض السفن الانكليزية محملة بالقمح والمؤن، وبناء عليه أمر بشنق البحارة، وباحراق السفن، ووزع المؤن على جنوده.

كيف ضمن الملك رتشارد التحالف مع كونت فلاندرز

وفي هذه الآونة حرض الملك رتشارد بوساطة الهدايا، جميع الأقوياء في المملكة الفرنسية لإقامة صداقة معه، فقد أعطى خمسة آلاف مارك من الفضة إلى بلدوين كونت أوف فلاندرز من أجل مساعدته، وقدم ذلك الأمير رهائن إلى الملك كضمانة على أنه لن يعقد اتفاقاً مع ملك فرنسا من دون موافقته، وتخلى سكان شامبين مع سكان بريتاني أيضاً عن ملك فرنسا، وانضموا إلى جانب الملك رتشارد، وقام وليم كريبن Crepin، قسطلان أوج Auge— مرغماً بالقوة— بتسليم القلعة نفسها إلى الملك الانكليزي، الذي قام على الفور بشحنها بقوة عسكرية، وحشد الملك الفرنسي جيشاً، وألقى الحصار عليها، وبينما كان هذا يجري، قام الملك الانكليزي بنزول سريع على أوفرين، واستولى على عشر من قلاع الملك الفرنسي، وعلى عدد كبير من أتباعه، لكن قبل أن يعود الملك رتشارد إلى نورماندي استولى الملك الفرنسي على قلعة أنجو، إنما بتسلمه خمسين ماركاً من الفضة، أعطى لجنود حامية القلعة أماناً على حياتهم، وعلى جوارحهم مع خيولهم وأسلحتهم، واحتفظ الملك بالقلعة وقواها.

كيف جرى التضييق بشدة على الملك الفرنسي في نورماندي

وحاصر في الوقت نفسه بلدوين كونت فلاندرز قلعة أرآس Arras، وسمع الملك الفرنسي بهذا، فقدم إلى هناك مع جيش كبير، ولدى وصوله رفع الكونت الحصار، وغادر إلى ممتلكاته، والملك الفرنسي يطارده، إنما بعدما قطع هذا الملك مسافة كبيرة بين البحيرات وخلجان

البحر، قام كونت فلاندرز بتدمير جميع الجسور، وبفتح قنوات جر المياه، وذلك من أمام الملك الفرنسي ومن خلفه، ولذلك لم يعد بامكان الملك الفرنسي لاالتقدم ولاالتراجع، ولم يعد ممكنا جلب أية مؤن إليه، وعندما وجد الملك نفسه في مواجهة هذه المصيبة، بعث رسالة إلى الكونت، بأنه جاء إلى هناك مع نية عمل اتفاقية سلمية معه، أو استرجاعه من ولائه للملك الانكليزي، وعلاوة على ذلك أخبر الكونت بأنه كان تابعاً له ومن رعيته وعلى ذلك الأساس لايجوز له، وغير متوقع منه القتال ضد تاجه، وعلى كل حال قبل أن يسمح الكونت لملك فرنسا بالمغادرة جعله يقسم أنه سوف يعيد إليه نفسه— الكونت— وإلى ملك انكلترا، جميع القلاع والحقوق، التي استولى عليها خلال الحرب، وحدد يوما لإبرام هذه الاتفاقية، وأعدّ الترتيبات لأن يجتمع هو نفسه مع الملك الانكليزي الذي يتوجب حضوره إلى مؤتمر يعقد يوم الأربعاء بعد عيد تمجيد الصليب المقدس، بين غيلون Gaillon ، وأندلي، وبذلك نجا الملك الفرنسي من الأسر من قبل الدوق، وعاد إلى ممالكه، لكنه بعدما عاد إلى باريس، اجتمع للتشاور مع نبلائه من أجل خرق الاتفاقية والتخلص منها، لأنه لم ير نفسه ملزماً بالحفاظ على يمين أداه مكرهاً.

حول بعض القوانين المفيدة التي عملها الملك رتشارد

وفي العام نفسه، في يوم عيد القديس ادموند، أصدر الملك والشهيد، الملك رتشارد، بناء على تشجيع هيوبرت رئيس أساقفة كانتربري ومتولي العدالة في انكلترا، مرسوماً في وستمنستر، قضى بوجوب أن تكون معايير القمح والقطاني في جميع أرجاء انكلترا، وفي المدن وفي الأماكن الأخرى ذات حجم واحد، وبشكل خاص معيار الجعة، والخمرة، وأوزان التجار، ورسم أيضاً أن تكون الأقمشة الصوفية في جميع أرجاء المملكة بعرض ذراعين مع الحواشي، وأن تكون جيدة في الوسط كما هي في الأطراف، وعلاوة على ذلك رسم أنه لايجوز لتاجر أن يعلق أمام

حانوته أقمشة حمراء أو سوداء، أو أي شيء آخر يمكن أن يزيغ نظر الشاري ويخدعه في اختيار القماش الجيد، وأصدر مرسوماً آخر قضى أنه لايجوز استخدام صباغ، إلاّ الصباغ الأسود في أي مكان في المملكة، إلاّ باستثناء مدن الحواضر، أو المناطق، وإذا ماخرق أي انسان هذه القوانين وأدين بذلك، ينبغي سجنه جسدياً، ومصادرة سلعه لصالح الميزانية الحكومية؛ وفي هذا العام نفسه جرى انتخاب فيليب، الذي كان كاهنا من مقاطعة بواتو التابعة للملك، أسقفاً لدرم، وجرى تكريسه في اللاتيران من قبل البابا سيليستين.

تتويج أوتو ملكاً على ألمانيا

وفي السنة الثامنة من حكم الملك رتشارد، وبناء على توصية من هذا الملك نفسه جرى تتويج ابن أخته أوتو ملكاً على ألمانيا، وقد قام على الفور بالزواج من ابنة دوق لوفين Louvain ، وفي يوم تتويجه، جلس إلى المائدة في الكنيسة معها، مع أنها لم تكن متوجة في ذلك الوقت، وفي هذا العام نفسه، وإثر وفاة البابا سيليستين، خلفه انوسنت الثالث، وفي يوم عيد القديس بطرس، جرى تكريسه بابا ووضع فوق كرسي القديس بطرس، وتحت رعايته ظهر في ايطاليا فرقة جديدة من المبشرين اسمها فرقة« اليعاقبة»، لأن أفرادها قلدوا حياة الرسل، وتجول هؤلاء الرجال بين المدن، والشوارع والقلاع، يبشرون بكلمة الانجيل، ويأكلون قليلاً، ويرتدون ثياباً خفيفة، ومن دون ذهب، أو فضة، أو أية مقتنيات أخرى، وتكاثر هؤلاء القوم خلال وقت قصير في جميع أرجاء العالم، بسبب فقرهم التطوعي، وكانوا يسكنون في المدن الرئيسية كسبعة أو عشرة، دونما اهتمام بالمستقبل، وبلا احتفاظ بأي شيء من أجل الاستخدام في الغد، وقد عاشوا أيضاً وفقاً لأحكام الرسل، ومهما اجتمع على موائدهم من وفرة بالأشياء، من خلال هدايا الصدقات، كانوا يتولون توزيعه على الفور على الفقراء، وقد تجولوا في كل مكان

يبشرون بالانجيل، وناموا في ملابسهم، واستخدموا فرشاً قاسية، ووضعوا حجارة تحت رؤوسهم بدلاً من الوسائد.

التوبة الرائعة لهيوج أسقف شستر

ووقع في هذا العام هيوج دي نونات Nunant أسقف كوفنتري أو شستر، مريضاً جداً عندما كان على طريقه إلى روما، وعندما أقعد على الأرض بسبب مرضه، وعرف بأن موته قد اقترب، بعث خلف جميع رجال الدين في نورماندي كلها، ووراء رعاة الديرة، ورؤساء الرهبان، وبقدرما استطاع من آخرين، وعلى مسمع منهم جميعاً، وببراءة وقلب نادم، اعترف وهو يبكي، بصوت مرتفع بجميع ذنوبه، وأخطائه، وجرائمه التي تمكن من تذكرها، وكانت توبته عظيمة جداً، وكذلك ندامته، إلى حد أن جميع الذين وقفوا ونظروا إليه انفعلوا وأخذوا يبكون، وقام أخيراً وهو يبكي وينتحب، وبيدين متشابكتين، فتوجه بالرجاء إلى جميع الكهنة، ورجاهم بفضل الرب، أن يفرضوا عليه توبة مناسبة وتكفيراً لائقاً، يكون بمثابة توبة من جرائمه الكبيرة، التي اقترفها، غير أن رجال الدين الذين وقفوا إلى جانب فراشه يسمعون عن الحياة الشريرة للأسقف، ويرون بالوقت نفسه الندامة القصوى لقلبه، نظر أحدهم نحو الآخر، وكانوا جميعاً صامتين، غير عارفين النصيحة التي عليهم تقديمها بشكل مفاجيء، ولدى رؤية الأسقف لذلك قال لهم:« إنني أعرف، وإنني أعرف، أنكم سمعتم عن هذه الآثام العظيمة، إنكم تشكون وسط أنفسكم، حول ماذا عليكم أن توقعوه بي عن طريق التكفير، لكنني أرجوكم باسم مولانا يسوع المسيح، أن تحكموا علي بوساطة طريق التوبة، من أجل إزالة ذنوبي، ولكي أبقى— وفقاً لمشيئة الرب— في عذاب المطهرة حتى يوم الحساب، أي برحمة مخلصنا، الذي قامت رحمته على قضائه، يمكن أن أنجو»، وقد أرضاهم هذا الرأي جميعاً، وذلك باستثناء الرحمة اللاهوتية التي ترغب دوما بانقاذ الجميع

ونجاتهم، وأن لايضيع أحد، ثم قال الأسقف على مسمع منهم جميعاً، واعترف وهو حزين جداً، بأنه طرد الرهبان من كوفنتري، ولكي يضيف إلى أخطائه أحل محلهم كهنة من رجال الدين، ولكي يكفر عن ذنبه، لم يجد سوى طريقة واحدة للتصحيح، هي أن يموت وهو مرتدياً لثوب من ثياب هؤلاء، الذين قام بمطاردتهم، وهو تحت تأثير الشيطان، وذلك طوال ماكان قادراً على ذلك، وأنزلهم إلى درجة التسول، ومن خلال كراهيته وحقده آذاهم بكل طريقة ممكنة، وبعد هذا الاعتراف رجا أسقف بك Bec ، الذي كان واقفاً إلى جانبه بين الآخرين، أن يتصدق عليه، فيمنحه في سبيل عار الشيطان وخزيه، ثوب راهب، حتى يتمكن من اتخاذ وقاة له في الحياة المقبلة الذين عذبهم في هذه الحياة، وبعدما جرى منح ذلك له، أعطى كل ماامتلكه من ذهب وفضة، وجواهر، وأواني ثمينة إلى البيوت الدينية وإلى الفقراء، وهكذا مات أكثر سعادة مما كان متوقعاً، وسط آمال ودموع الذين وقفوا من حوله.

حول استرداد كنيسة كوفنتري الديرية وطرد الكهنة

كان في تلك الآونة يقيم في بلاط روما واحداً من رهبان الدير في كوفنتري اسمه توماس، وكان قد تعرض للطرد مع رفاقه كما تقدم التبيان أعلاه، من قبل الأسقف المتقدم الذكر، وكان يسعى بوساطة سلطات الحبر الأعظم أن يعيد الرهبان إلى سالف وضعهم، بعدما جرى تفريقهم في جميع الجهات، وكان بعض إخوانه الرهبان قد مات، وبعضهم قد ترك البلاط مرهقاً وفقيراً، وحافظ هو وحده وثابر مع هذه القضية، مع أنه بسبب فقره، غالباً ماأرغم على التسول في سبيل خبزه، وعندما سمع بالأخبار التي كان يتمناها، والتي تحدثت عن وفاة أسقف كوفنتري، ارتفعت آماله في قلبه بالرب، الذي أظهر جوده نحو أولئك الذين وثقوا به، وثابروا على فعل الخير، وفي أحد الأيام، عندما كان البابا الجديد أنوسنت جالساً في مجلسه مع كرادلته، اندفع الراهب

المذكور إلى وسطهم بشكل مفاجيء، وقدم إلى البابا شكوى طرح فيها قضيته، وبعدما قرأ البابا الشكوى، رد على الراهب المتعجل:« ألم يحدث أمام ناظري ومسمعي أن رفضت هذه الشكوى مراراً من قبل سلفينا: كليمنت وسيليستين، فهل تظن أنك ولم تستطع الوصول إليهما، أن تفعل ذلك معي، وكأنني أحمق»؟ وأضاف وهو مغضب« غادر ياأخانا، غادر، لأن من المؤكد أنك تنتظر هنا من دون غاية»، ولدى سماع الراهب هذه الكلمات، ردّ وهو يبكي بحرقة قائلاً:« أيها الأب المقدس، ان شكواي عادلة، وهي كلها صادقة، ولهذا لم أنتظر عبثاً، ذلك أنني سوف أنتظر موتك، مثلما فعلت بالنسبة لمتقدميك، لأن الذي سوف يخلفك سوف يستمع إلى شكواي بشكل فعال»، ولدى سماع البابا لهذه الكلمات كان مندهشاً بشكل مؤثر، والتفت إلى كرادلته الذي جلسوا بجواره وقال:« هل سمعتم الذي قاله هذا الشيطان، فلقد قال بأنني سوف أنتظر موتك كما انتظرت موت سلفيك، ثم إنه التفت إلى الراهب وقال: ياأخانا، بحَق القديس بطرس، لن تنتظر موتي هنا، لأنه جرت الموافقة على شكواك»، وقام على الفور، وقبل أن يتناول أي طعام، فأرسل أوامره إلى هيوبرت رئيس أساقفة كانتربري، أنه فور تسلمه لرسائله، عليه الذهاب شخصياً إلى كنيسة كوفنتري فيطرد الكهنة، ويعيد اسكان الرهبان، وقام رئيس الأساقفة المذكور، وهو مؤيد بسلطات الحبر الأعظم، فنقل الكهنة المتقدم ذكرهم، وفي الثامن عشر من كانون الثاني أعاد الرهبان وأقرهم في موضعهم، وبما أن رئيس رهبان ذلك المكان كان قد مات عندما جرى طرد الرهبان إلى المنفى، عين رئيساً عليهم نورماندیا اسمه جويبيرت Joibert، الذي تولى الحكم على ثلاث رئاسات رهبان هي ديفنتري Davertry، ووينلوك Wenloc;، وكوفنتري، وكان ذلك بسبب براعته العالية في إدارة الأعمال المدنية، وقد قام على الفور، بناء على نصيحة الرهبان، فأقام انتخاباً لأسقف، وبموافقة من الجميع وقع الاختيار على غيوفري

موسكهامب Muschamp ، وكان رئيس رهبان بيرموندي Bermondsy يحتضر آنذاك، في تلك الآونة أيضاً، ولكي يرضى هيوبرت رئيس أساقفة كانتربري جشع جويبيرت المتقدم ذكره، أضاف إليه رئاسة الرهبان الرابعة هذه، وذلك مع الثلاثة المتقدمات.

حول سيامة أسقفين

وفي الأحد الرابع بعد الصوم الكبير، جرت سيامة يوستاس عميد سالسبري أسقفاً لإيلاي، من قبل هيوبرت رئيس أساقفة كانتربري في بيعة القديسة كاترين في وستمنستر، وبعد هذا جرت سيامة غيوفري الأسقف المنتخب لكوفنتري، من قبل رئيس الأساقفة نفسه في كانتربري، وكان ذلك في الحادي والعشرين من حزيران، وتساقطت في هذا العام نفسه زخات من الدم على الذين كانوا يبنون القلعة في آندلي في نورماندي، وربما كان ذلك انذاراً بموت الملك رتشارد الذي وقع بعد ذلك بوقت قصير، وعمل في هذه الآونة أيضاً، غيوفري رئيس أساقفة يورك سلاماً مع الملك وأخيه في نورماندي، لأن الملك كان منزعجاً منه لعزله مستشاره عندما كان سجيناً للامبراطور.

عزل هيوبرت رئيس أساقفة كانتربري من وظيفة رئاسة العدالة

ونشبت في هذه الآونة خلافات بين رئيس أساقفة كانتربري وبين رهبان الثالوث المقدس في ذلك المكان حول الكنيسة الجديدة التي بناها رئيس الأساقفة في لامبث، لأن الرهبان كانوا خائفين، من أن ينقل الكرسي الكاتدرائي إلى هذا المكان الأخير، وبناء عليه أرسلوا شكوى إلى روما، إلى البابا انوسنت، بأن رئيس الأساقفة، كان على الرغم من مكانته وسمو مركزه، يعمل رئيساً للعدالة في انكلترا، وقاضياً حول مسائل تتعلق بالحياة والموت، وأنه يهتم بالشؤون المدنية، أكثر من اهتمامه بشؤون اختصاصه، ويهمل شؤون الكنيسة، واتهموه بحقيقة، أنه بأمر

منه جرى تدنيس كنيسة القديسة مريم في آرشي Arches في لندن وخرق حرمتها، وذلك عندما جرى سحب وليم ذي اللحية منها، وربط إلى ذيول خيول، وجرّ خلال شوارع المدينة، وأخيرا جرى تعليقه على المشنقة، وبهذه الطريقة أنفق الرهبان كمية كبيرة من المال حولها، وأساءوا كثيراً إلى سمعة رئيس الأساقفة، ولدى سماع البابا بهذه الأشياء أمر ملك انكلترا، القيام على الفور ـ لدى تسلمه لرسائله، وتحت التهديد بعقوبة الحرمان من شركة المؤمنين ـ بعزل رئيس الأساقفة من وظيفة رئاسة العدالة، لأنه كان محرماً بشكل خاص على الأساقفة التورط في القضايا المدنية، وعزل الملك رتشارد رئيس الأساقفة، وعين غيوفري فتز— بيتر في موضعه.

معركة بين الانكليز والويلزيين سقط فيها كثيرون

وفي هذا العام نفسه، عندما كان الملك رتشارد، مقيماً فيما وراء البحر، حشد غيوفري فتز— بيتر رئيس العدالة في انكلترا، جيشاً كبيراً، وزحف إلى ويلز، ليساعد وليم دي بروز Brause وأتباعه الذين كانوا محاصرين في قلعة ماتيلدا من قبل وينيونون Wenunwen، ملك الويلزيين، ولدى وصوله إلى هناك نشبت معركة، لم يكن الويلزيون فيها قادرين على مقاومة الانكليز، ولذلك أرغموا على الفرار، وألقوا أسلحتهم في سبيل الفرار بشكل أحسن، مما شجع الانكليز، وقد قيل بأن أكثر من ثلاثة آلاف وسبعمائة منهم قد قتلوا، أي من جنودهم، وذلك إلى جانب الذين وقعوا بالأسر، والذين أصيبوا بجراحات قاتلة، وقتل من الانكليز رجل واحد فقط، وقد أصيب بسهم غرب رماه به من دون انتباه واحداً من جنود جيشه.

كيف أسر الملك رتشارد في معركة مع الملك الفرنسي عشرين فارساً

في هذه الآونة نفسها التقى فيليب ملك فرنسا مع الملك الانكليزي رتشارد في معركة بين جوميجي Jumieges وفيرنون Vernon، وأرغم الملك الفرنسي وأتباعه في هذه المعركة على الفرار، وانسحبوا إلى فيرنون من أجل السلامة، لكن قبل أن يتمكنوا من الدخول إلى القلعة، تمكن الملك رتشارد الذي كان يطاردهم بحد السيف، من أسر عشرين فارساً، وأكثر من ستين جنديا، وفي العاشر من ايلول من هذا العام دفع رتشارد أسقف لندن دين الطبيعة وسدده.

حول النصر الرائع الذي ناله الملك رتشارد

وحشد في هذه الآونة الملك رتشارد جميع قواته، وبتأييد من شجاعة عساكره الانكليز استولى بالقوة على ثلاث قلاع من قلاع الملك الفرنسي هي: سيرفونتان Sirefontan، وبور Burs وحصن كورسيل Curcel، وقدم الملك الفرنسي الذي لم يعتقد بأن قلعة كورسيل قد تم الاستيلاء عليها بعد، من نانتي Nantes لتقديم المساعدة إلى ذلك المكان، مع أربعمائة من الفرسان وعدد من المرافقين مع جميع جنوده، وعلم الملك رتشارد بهذا بوساطة كشافته، فقدم من الاتجاه المعاكس للتصدي له، واشتبك بمعركة إلتحامية مع الفرنسيين بين كورسيل وغيسور، ولم يستطع الملك الفرنسي الصمود أمام صدمة حملات القتال، فهرب مع مرافقته إلى قلعة غيسور، وعندما كان الهاربون منسحبين فوق جسر تلك البلدة، انهار بسبب الحشود التي اندفعت من دون صبر للعبور عليه، وسقط الملك نفسه مع فرسه ودروعه وسلاحه في نهر إيثي Ethe ، مع عدد لايحصى من الفرنسيين الآخرين، وعندما كان مرميا هناك، زحف وسط الوحل، وبصعوبة أنقذ من الموت، وفي الوقت نفسه قامت نخبة من العساكر الفرنسيين، بالتصدي للملك رتشارد، وقاموا بهجوم حاد عليه، وفعلوا ذلك من أجل مساعدة مليكهم، ولإنقاذه من السقوط بين يدي الملك الذي كان يطارده، وبذلك عرضوا أنفسهم

للموت في سبيل الحفاظ على ملكهم، ثم استعر القتال من على الطرفين، وقرعت السيوف على رؤوس الخوذ، وأصدرت شرراً بسبب الضربات المتوالية، ورمت الرماح القاسية بالأعداء في جميع الاتجاهات، هذا وليس لدي وقت للتفاصيل، المهم هو أن حدة القتال لم تتوقف حتى أسر الملك الانكليزي كل المجموعة المقاومة، وترجل الملك رتشارد في هذه المعركة، واتخذ أسرى لنفسه ثلاثة من نخبة الفرسان هم: متى دي مونتمورنسي Montmorenci، وألان دي روسكي Rusciوفولك دي جايلرنالي Gilernalles ، وجرى معهم أسر الرجال التالين من أصحاب المراتب في المملكة الفرنسية: غالي دي بورتا Galis de portا، وجيرارد دي كوري Chori، وفيليب دي نانتويل Nanteuil، وبيتر دي اسكان Eschans ، وروبرت دي سينت دني Denys ، وثيوبولد دي وولنغار Wallengard، وسيدونال دي تري Cedunal de trie، وروجر دي ميتلنت Meetlent، وإيم ترير Aim triers، ورينالد دي أسكي Asci، وبلدوين دي ليزني Leisniوتوماس دي أسغنت Asgent، وفيريوس دي باريس Ferrius de paris، وبيتر دي لاتوتنيا Latotnia، وغي دي نافار Nevers ، وفرومنتين أوف شامبين Frumentin of champagne، وثيودورك دي أنسي Anceis، وأنفريك دي بعليم AnFrie de Baalim، وايبورارد دي مونتني Eborard de montigny، وأودو دي مونتسيون Muntciun، وفونكارد دي روشي Funcard de Roche، وولتر روفوس Rufces، وأرنولف دي ليني De Arnulph leini، ووليم دي بانسيتو Banceto، وجوكن دي بري Joken de Bray، وبيتر دي بنسي Pinci ودينبرت دي أوجي Augi ، وبونكارد دو شاتيل Puncard du-chatel، ووليم دي ميرلون Merllon، وجون دي غرانجي Grangesوثيوبولد دي برون Breun، وروجر دي بومنت Beaumont، وغيلبرت دي بري Brayex، وبيتر دي ميدول Maidul ،

وجون دي سيرني Cerni ، وألارددي لوفير Alard de Loviers، ورالف دي فالنسيل Falencel، وفيري دي بروني Ferri de Brunaye، وتوماس دي كاستيل Castele ، ووليم دي روشمونت Rochemont، وثيوبولد دي ميشي Misci وإلى جانب هؤلاء الذين تقدم ذكرهم، أسر الملك مائة فارس، وغنم مائتي فرس مغطاه بالدروع، وعدداً كبيراً جداً من الجنود الخيالة والرجالة ورماة الزنبورك، وبعث بعد هذا رتشارد المنتصر رسائل إلى جميع أصدقائه في انكلترا، مثل رؤساء الأساقفة، والأساقفة، ورعاة الديرة، والايرلات، والبارونات يرجوهم بإخلاص وحراره أن يشاركوه بتمجيد الرب، لأنه منحه مثل هذا النصر على أعدائه.

إبرام معاهدة بين ملكي فرنسا وانكلترا

وبناء عليه عندما رأى فيليب ملك فرنسا أن قوة ملك انكلترا تزداد يومياً، في حين تزداد قوته عجزاً، تراجع أمام الحاجة، وأرسل بشكل سري رسله إلى الحبر الأعظم، عارضاً توسلاته حتى يتفضل لعمل ترتيبات مع ملك انكلترا، أو أن يقيم هدنة يوقف خلالها القتال لبعض الوقت، من أجل أنه بعد إقامة الهدنة وتثبيتها من قبل البابا نفسه، يمكن بالتعاون معه، لملكي المملكتين أن يكونا قادرين على الوفاء بعهدي حجهما، ومن تحرير أرض الميعاد من سلطان أعداء المسيح، ولكي يكون هذا مضموناً وموثوقاً، سأل الملك البابا إرسال أحد الكرادلة مع سلطة ايقاع العقوبة إلى البلدان الغربية، حيث يمكنه إذا دعته الضرورات أن يتفوه بقرار الحرمان من شركة المؤمنين، ضد أي واحد يجده معاديا للسلام والمصالحة، واقتنع البابا انوسنت بهذا وبمطالب أخرى، ولأنه كان راغباً بتقدم القضية الصليبية، وتأثر أكثر بالمال منه بالتوسل، فاستجاب فأرسل بطرس أوف كابوا Capua، وكان واحداً من كرادلته، لإقامة سلام بين الملكين، وبعد وصوله إلى ممتلكات الملك

الفرنسي، أخذ معه— بناء على نصيحة الملك الفرنسي— بعض الأساقفة من المملكتين، ولدى وصـــوله إلى عند ملـك انكلترا بيّن له المآسي التي كانت واقعة وسوف تستمر بالوقوع في مملكتي الملكين مالم يصنع سلام، على الفور، بينهما، وأجابه الملك الانكليزي مغضباً، قائلاً بأنه ليس ملزماً بالشريعـة على فعل شيء بناء على أوامر البـابا، لاسيما وأنه سأله مـراراً، إرغام الملك الفرنسي بوساطة العقوبات الكنسية، لأن يعيد إليه الأراضي والقلاع، التـي استولى عليها الملك المذكـور بشكل ظالم، وبدون مـراعاة ليمينه، وذلك عندمـا كـان شخصيـاً في أرض الميعـاد، يعمل على طرد أعـداء الصليب، ويسعى إلى إعـادة الأرض المقـدسـة إلى وضع مـوائم، وبناء عليـه، لقد أرغـم، بسبب غلطة البابا نفسـه، على انفـاق مبلغ كبير من المال في سبيل استعـــادة أراضيـــه الموروثة، وبـذلك لم يقترف الملك الفـــرنسي إثم الحنث باليمين فقط، بل خـــرق أيضـــاً عقـوبة الحرمـــان الكنسي، وعلاوة على هذا كلـه هو لم يعرف فيما إذا كان الملـك الفرنسي يوافق على الهدنة، وعند ذلك أخـذ الكاردينال الملك الانكليـزي جانبـاً، وأخبره— تحت التعهـد بـالسرية بأنه بمبـادرة مـن ذلك الملك ومطلب منه، قد جرى إرساله من قبل البابا لإقامة سلام بينهما، ونصح الملك أن يستجيب في هذه المرة إلى رغبـة البابا، وليكن واثقاً مطمئنـا إلى أن البابا سوف يصغي إليـه فيما يتعلق بملك فرنسا، وكـذلك فيما يتعلق بالمسائل الأخرى، وكـان الملك رتشارد راغباً إلى أبعد الحدود بمصـالح ابن أخته أوتو، الذي جرى تتـويجه مؤخراً ملكاً على ألمانيـا، وكان يريد أن يحصل له من البـــابا على وصـــول سهل إلى العـــرش الامبراطـوري، ولذلك استسلم إلى التـوسـلات التي صـدرت عن الجميع، ورضي بالترتيبـات، وبناء عليـــه التقى الملكـان، وأقسما على الحفـــاظ على الهدنة لمدة خمســـة أعـوام، مع شرط السماح للرعـايـا والتجـار من الجانبين، أي العـائـدين للملكين، بالذهاب والإياب حسب رغباتهم، بغرض البيع أو والشراء، في جميع مناطق وأسـواق كـل من المملكتين، وبعـد عمل هذا وانجـازه،

أرسل ملك انكلترا راعي دير كيرتسي Chertsey وريموند الراهب العائد لدير القديس ألبان، الذي كان قد بُعث إلى نورماندي للقاء الملك من أجل قضايا الكنيسة، أرسلهما إلى روما، لحمل المعاهدة المتقدمة الذكر ووضعها موضع التنفيذ، وفي سبيل تنفيذ هذا كله، فرض الملك ضريبة خمسة شلنات على كل هايد(فدان) من الأرض مفلوح في جميع أرجاء انكلترا، وذلك من أجل مساعدته.

كيف دمر هيوبرت رئيس أساقفة كانتربري كنيسة لامبث

عام ١١٩٩م، فيه قام هيوبرت رئيس أساقفة كانتربري بتدمير كنيسة لامبث، على نفقته، وفي جلب العار لنفسه ولآخرين كثر، وذلك بناء على طلب رهبان كانتربري، وأوامر الحبر الأعظم، وكانت هذه الكنيسة قد أسست من قبل سلفه بلدوين، وأنهاها هو نفسه.

وفاة الملك رتشارد

في العام نفسه، بعد إعداد الهدنة بين فيليب ورتشارد، ملكي فرنسا وانكلترا، حول الملك الأخير سلاحه ضد بعض البارونات المتمردين في بواتو، ونقل النار والسيف إلى مدنهم وبلداتهم، وقطع كرومهم وبساتينهم، وقتل بعضاً من أعدائه من دون رحمة، ووصل أخيراً إلى دوقية أكوتين، وألقى الحصار على قلعة كالوس Chalus في ليموزين Limosin، وهناك في السادس والعشرين من آذار جرح— كما قيل— بسلاح مسموم من قبل بيتر بازيلي Basilii، لكنه لم يعبأ بهذه الجراحة، وتمكن خلال الاثني عشر يوما التي عاشها من مهاجمة القلعة بشدة، والاستيلاء عليها عنوة، وقد ألقى بالفرسان وبأتباعهم في سجن ضيق، ووضع أتباعه في القلعة، وقوى في الوقت نفسه التحصينات، غير أن الجرح الذي أصيب به في هذا المكان، والذي لم يتلق العناية طوال ذلك الوقت، أخذ بالتورم، وأخذ نوع من السواد ينتشر حول مكان الجرح،

وقـد امتـزج بالـورم، وسبب له ألماً لايحتمل، وأخيراً عندمـا أدرك بأن الخطر كـان عظيماً، استعـد الملك لنهـايتـه بـالتـوبة في القلب، وباعتراف طاهر نقي، وبقربان جسـد ودم ربنا، وقد غفـر للذي سبب موته، الذي اسمه بيتر، وهو الذي أصـابه بالجراحه وأمر بفك أغـلاله ومغادرته، ثم أمر بدفـن جسده في فونت— ايفـرولت Font- Evrault، عند قدمي والده، الذي اعترف بأن مـدمـره، كـان هو شخصيـا، ومنح قلبـه الذي لايقهر إلى كنيسـة روان، وأمر بـدفن أحشائـه في كنيسة القلعـة المذكورة أعلاه، وبذلك قـدمها هدية إلى سكان بواتو، وقد أباح لبعض أصدقـائه المقـربين— تحت وعـد السرية— أسبـاب قيامـه بتـوزيع جسـده هكذا، فللسبب المتقـدم ذكره أعطى جسده إلى أبيـه، وقد أرسل قلبـه هدية إلى سكان روان، نظراً لإخـلاصهم الذي لانظير لـه، الذي تمتع به دومـا، لكن بالنسبـة لسكان بواتو، ترك لهم أحشـاءه، نظراً لمعـرفته بخيـانتهم، عادّاً إياهم غير جديرين بأي جزء آخر من جسده، وبعدما فرغ من قوله هذا، وصل التـورم فجأة إلى المناطق التي حـول قلبه، وفي السـادس من نيسـان، أسلم هذا الرجل المحارب روحـه، في القلعـة المذكورة أعـلاه، وذلك بعدما حكم تسعة أعوام ونصف العام، وقد دفن حسبما أمر وهو حيّ، في فـونت— ايفـرولـت، ودفن معـه— كما رأى كثيرون— أيضـاً فخار وشرف الفروسية في الغرب، وعن موته ودفنه نشر أحدهم النقش التالي:

أحشـاؤه أعطيـت إلى بواتو— وهي راقـدة مـدفـونة قـرب حصن كالوس؛

جسده راقد مدفون تحت— ألواح رخامية في فونت— ايفرولت؛

ونوستريا حصلت على شطرك— الذي هو قلب البطل الذي لايقهر.

وهكذا توزعت هناك في مدن ثلاث— بقايا ذلك الميت الجبار

وهذه الجنازة لايمكن أن تكون— لملك واحد بل لملوك ثلاثة

هنا البدايات حول الملك جون وأشياء أخرى وقعت في ذلك الحين

بعد انتقال الملك رتشارد المنتصر، الذي تقدم ذكره، من الجسد، احتفظ أخوه جون بتكريم بجميع الذين خدموا أخاه، وكذلك بالفرسان المرتزقة، واعداً إياهم بهدايا كبيرة، وأرسل مباشرة هيوبرت رئيس أساقفة كانتربري، ووليم مارشال إلى انكلترا، لإقامة السلام هناك وليتوليا المسؤولية عن المملكة، وذلك مع غيوفري فتز— بيتر، الذي كان آنذاك المسؤول عن العدالة مع غير هؤلاء مع نبلاء المملكة، ولدى وصولهما إلى هناك جعلا الناس يقسمون يمين الولاء إلى الايرل جون، واجتمعا مع غيوفري فتز— بيتر، ودعوا مع بعضهم جميع النبلاء الذين كانوا يشكون بهم كثيراً، وقد وعدوهم بأن الايرل جون سوف يعيد إليهم حقوقهم جميعاً، وعلى أساس هذا الشرط، أقسم وقتها الايرلات والبارونات يمين الولاء إلى الايرل المذكور، وذلك على الرغم من الآخرين، هذا وبعثوا رسالة إلى وليم ملك الاسكوتلنديين مع يوستاس دي فسكي Vesci ، بأن الايرل جون سوف— لدى عودته إلى انكلترا— يرضيه بالنسبة لجميع حقوقه في انكلترا، إذا ماحافظ— في الوقت نفسه— على الاخلاص والسلام مع الايرل، وهكذا جرى إخماد جميع النزاعات والخلافات في انكلترا وتسويتها.

كيف ربط بعض النبلاء أنفسهم بالايرل جون وآخرون بآرثر

وفي أثناء وقوع هذه الأحداث في انكلترا، ذهب الايرل جون إلى شينون Chinon حيث كانت أموال الملك المتوفى، مودعة، وقد سلمه إياها جون دي تورنهام Turnham الذي كان مسؤولاً عنها، وأعطاه معها قلعتي سومور Saumur وشينون وحصوناً أخرى،

كان معهوداً إليه العناية بها، لكن توماس دي فيرني Furnes ، حفيد روبرت المذكور، قد سلم مدينة أنجو وقلعتها إلى آرثر كونت بريتاني، والتحق بآرثر المذكور، والتحق أيضاً مقدمو أنجو، ومين، وتور بحزب آرثر لأنه كان مولاهم الاقطاعي، قائلين بأن هذه كانت عادة هذه المناطق وكان هذا موقفها، بأن آرثر هو ابن الأخ الأكبر، يتوجب أن يخلف عمه في الأسرة وفي الميراث، وهذا ماكان غيوفري والد آرثر هذا نفسه سيفعله لو أنه عاش بعد الملك رتشارد، علاوة على ذلك ذهبت كونستانسي، أم آرثر إلى تور، إلى الملك الفرنسي وسلمت آرثر المذكور إليه، وقام ذلك الملك على الفور بإرساله إلى باريس تحت حراسة حرس، وتسلم جميع القلاع والمدن العائدة إلى آرثر، ووضعها تحت رعايته، لكن الايرل جون والملكة اليانور، وصلا مع جيش كبير إلى مين Maine، واستوليا على المدينة والقلعة، وهدما البيت الحجري فيها، واتخذا السكان أسرى، وسجناهم.

كيف تسلم الايرل جون دوقية نورماندي

بعد هذه الأحداث أمضى الايرل جون يوم الفصح في بامفورت Bamfort في أنجو، وأرسل في اليوم التالي الملكة اليانور مع ميركادوس إلى مدينة أنجو، التي هاجماها، ودمراها، واتخذا سكانها أسرى، ووصل الايرل جون في الوقت نفسه إلى روان، وفي ثمانية يوم الفصح[٢٥— نيسان] تقلد سيف دوقية نورماندي في الكنيسة الأم، من قبل وولتر رئيس أساقفة روان، ووضع رئيس الأساقفة نفسه، وهو أمام المذبح الكبير، على رأسه، الإطار الذهبي مع الوردة الذهبية، المصنعة بشكل فني على شكل دائرة، فوق رأس الاطار، ثم إن الدوق جون أقسم بحضور رجال الدين والشعب، على آثار القديسين، وعلى الانجيل المقدس بأنه سوف يدافع باخلاص، ومن دون ممارسات شريرة عن الكنيسة المقدسة، وعن مكانتها، وعن شرف الكهنة المرسومين فيها،

وعلاوة على ذلك أقسم على إزالة القوانين السيئة، إذا ماوجد أي منها، وأن يجعل الآخرين بدلاً عنهم، وفي الثالث والعشرين من أيار من العام نفسه، جرت سيامة وليم الذي كان من أصل نورماندي وكان كاهناً في كنيسة القديس بولص في لندن، أسقفاً للندن، في بيعة القديسة كاترين في وستمنستر وكان الذي تولى تكريسه هيوبرت رئيس أساقفة كانتربري.

تتويج الملك جون

وقدم في هذه الآونة جون دوق نورماندي إلى انكلترا، ونزل في شورهام Shoreham في الخامس والعشرين من أيار، وفي اليوم التالي، الذي كان عشية صعود ربنا، ذهب إلى لندن، ليجري تتويجه هناك، ولدى وصوله إلى هناك، اجتمع رؤساء الأساقفة، والأساقفة، والايرلات، والبارونات، مع جميع الآخرين الذين كان من واجبهم الحضور أثناء التتويج، اجتمعوا مع بعضهم في كنيسة رئيس الرسل في وستمنستر، وكان ذلك في السابع والعشرين من أيار، وهناك وضع هيوبرت رئيس أساقفة كانتربري التاج على رأسه، ومسحه ملكاً، وقدم فيليب أسقف درم التماساً بمنع هذا التتويج أثناء غياب غيوفري رئيس أساقفة يورك، لكنه لم يحصل على رغبته، وربط الملك جون نفسه أثناء هذا التتويج بيمين مثلث، تضمن: محبة الكنيسة المقدسة، وكهنتها المرسومين، وحفظها سليمة من الأذى والعدوان والنوايا الشريرة، وأن يزيل القوانين السيئة، وأن يحل محلها قوانين جيدة، من أجل أن يرى العدل يطبق بشكل صحيح في جميع أرجاء انكلترا، ثم جرت بعد ذلك مناشدته من قبل رئيس الأساقفة نفسه، باسم الرب، ومنعه بكل دقة من الاقدام على تقبل هذه المرتبة العالية، مالم يكن قد نوى في عقله الوفاء، بما أقسم عليه، وفي جواب على هذا، وعد الملك أنه بعون الرب، سوف يحافظ باخلاص على اليمين الذي وعد به، وذهب في اليوم التالي، بعدما

تلقى الولاء والتابعية من رعاياه، إلى القديس ألبان، الشهيد الرائد لانكلترا، وذلك بهدف الصلاة، وبذلك عمل إقامة قصيرة في انكلترا، وقام وقتها بناء على نصيحة النبلاء بتسوية كل القضايا التي استرعت انتباهه.

كيف عبر الملك جون إلى نورماندي
وصالح كثيراً من النبلاء مع نفسه

في يوم ميلاد القديس يوحنا المعمدان، عبر الملك البحر إلى نورماندي، ولدى وصوله إلى روان تدفقت عليه أعداد كبيرة مع بعضها من خيالة ورجالة، وبسرور احتفظ بهؤلاء في خدمته، واجتمع بعد ذلك مع ملك النمسا، ووقتها جرى الاتفاق على هدنة، حتى اليوم التالي ليوم صعود مريم المباركة، من أجل أن يتمكنوا في تلك الأثناء من إعداد شروط للسلام، وفي الوقت نفسه وصل إلى عند الملك جون وهو في روان كونت فلاندرز، وعدد كبير آخر من نبلاء المملكة الفرنسية، وأبرموا معاهدة تحالف معه، كما كانوا قد أبرموا من قبل مع الملك رتشارد، ضد ملك فرنسا، وبعد تبادل الضمانات عاد كل واحد إلى بلاده.

كيف التقى الملكان في مؤتمر
لكن افترقا مختلفين أحدهما مع الآخر

وفي هذا العام نفسه، وفي اليوم التالي لعيد صعود العذراء، اجتمع الملك الفرنسي بمؤتمر مع الفرسان ذوي الأحزمة حول آرثر كونت بريتاني، وقام آرثر المذكور على الفور بتقديم الولاء إلى الملك الفرنسي عن: أنجو، وبواتو، وتور، ومين، وبريتاني، ونورماندي، ووعد الملك آرثر بتقديم العون له من قبله من أجل الحصول على هذه الأماكن، وبعد مضي يومين، اجتمع الملكان وعقدا مؤتمراً فيما بين قلعتي بوتافانت

Butavant، وغيلون Gaillon ، فيه تحادثا منفردين، بعيداً عن نبلاء المملكتين، وجهاً لوجه لمدة ساعة، ولم يكن معهما أحد أثناء المحادثات، وطلب الملك الفرنسي في ذلك الاجتماع لاستخدامه الشخصي جميع فكسين، أي المنطقة الواقعة فيما بين غابة ليون والسين من الجانب الأول، ونهري أندلي وإيثي Ethe من الجانب الآخر، وقال بأن غيوفري بلانتغنت كونت أوف أنجو، الذي هو جد الملك جون، قد أعطاها إلى لويس لى غروس Gros ، من أجل مساعدة قدمها له ذلك الملك، في سبيل الحصول على نورماندي، في مواجهة للملك ستيفن، وعلاوة على ذلك طالب لصالح آرثر بمناطق: أنجو، وبواتو، ومين، وتور، ونورماندي، وأشياء أخرى كثيرة، لم يرغب الملك جون بمنحها، وتوجب عليه عدم منحها، وهكذا ارفض الاجتماع، وافترقا على خلاف متبادل، وسأل النبلاء الفرنسيون الملك الفرنسي عن سبب موقفه العدائي الكبير من الملك جون، الذي لم يؤذه قط، فأجاب بأن هذا الملك استولى على نورماندي، والمناطق الأخرى المذكوره أعلاه من دون إذنه، حيث كان عليه، إثر وفاة الملك رتشارد، القدوم في المقام الأول إليه وتقديم الولاء إليه من أجل حقوقه، وبناء عليه غادر الملك الفرنسي، وقام وليم دي روبيبس Rupibus وكان نبيلاً بارعاً، فأخذ آرثر وأبعده عن وصاية الملك الفرنسي، وعمل مصالحة بينه وبين ملك انكلترا، وقد تنازل في الوقت نفسه إلى الملك الانكليزي عن مدينة مان، التي كان الملك الفرنسي قد وضعها مع آرثر تحت عهدة وليم المتقدم ذكره، لكن في اليوم نفسه جرى إخبار آرثر، بأن الملك الانكليزي سوف يعتقله، ويضعه في سجن أبدي، وبناء على ذلك نجا بشكل سري، وعاد ثانية إلى الملك الفرنسي.

كيف ذهب الملك أوتو إلى روما
وحصل على لقب امبراطور هناك

وجرى في تلك الآونة إلغاء انتخاب فيليب دوق سوابيا وعدد كبير آخر، وتمّ انتخاب أوتو ملك ألمانيا، وقبل امبراطوراً في روما من قبل البابا انوسنت، ومن قبل جميع الشعب الروماني، وبعد تأكيد هذا الانتخاب من قبل البابا، جرى تهديد فيليب دوق سوابيا مع مؤيديه جميعاً بالحرمان الكنسي، مالم يتمنعوا عن تعذيبهم لأوتو، وارتفعت الأصوات في العاصمة روما عاليا تنادي« الحياة والصحة للامبراطور أوتو»، وبذلك تأكد اللقب من قبل الجميع، ووقتها تذكر أنه بوسائل الملك رتشارد، تقدم إلى هذا المقام العالي، وبناء عليه أرسل رسالة إلى الملك جون أن يوقف محاولات اتفاقات الصداقة مع الملك الفرنسي، لأنه، وهو الامبراطور، على استعداد لتزويده في وقت قصير بالمساعدة التي تسمح المكانة الامبراطورية بتقديمها.

وضع المملكة الفرنسية تحت الحرمان

وفي هذه الآونة، وضع بطرس الذي كان كاردينالاً، ونائباً للكرسي الرسولي، المملكة الفرنسية تحت الحرمان من شركة المؤمنين، بسبب سجن أخيه بيتر دي دوي Douay ، الذي كان أسقفاً منتخباً لكامبري Cambray ، وقام الملك الفرنسي باطلاق سراح الأسقف المنتخب المذكور قبل سحب القرار، وفي العام نفسه وصل النائب البابوي نفسه إلى ملك الانكليز، وطلب— تحت التهديد بفرض عقوبة الحرمان من شركة المؤمنين— اطلاق سراح أسقف بوفياس الذي كان قد مضى على احتجازه بوحشية كبرى، في السجن عامين، والحصول على اذن الملك بالسماح إلى ذلك الأسقف بحرية المغادرة، ولكن بما أن ذلك الأسقف قد حمل السلاح مثل جندي أو قاطع طريق، دون أن يقيم تقديراً لمكانته الدينية، لم يسمح له بالمغادرة قبل أن يشبع نهم الملك، بدفع ستة آلاف مارك فضي بالعيار الاسترليني إلى خزينته، وأقسم بعد هذا، الأسقف المذكور على عدم حمل السلاح مرة ثانية ضد المسيحيين.

قرار حول الخلاف القديم بين كنيستي تور ودول

اتخذ في هذا العام قرار في روما حول الخلاف القديم بين كنيستي تور ودول Dol ، وجاء القرار بناء على تحكيم قطعي من قبل البابا انوسنت، فقد طالب رئيس أساقفة تور بخضوع أسقف دول له، وعارض أسقف دول ذلك، وكانت كنيسة دول هي الرئيسية في بيرتاني الصغرى، وكان الكهنة الأعلون لتلك الكنيسة ، وكذلك جميع الأساقفة الآخرين في بريتاني الصغرى، في أيام القديس مارتن، وقبل ذلك بوقت طويل، أساقفة مساعدين لكنيسة تور، غير أنهم ثاروا فيما بعد وتمنعوا عن التبعية لتلك الكنيسة، وكان السبب لذلك هو: عندما قدم الانكليز إلى بريطانيا الكبرى، وأخضعوها، مرض يوتربندراغون Uterpendragon ، ملك البريطانيين، مرضاً شديداً، واضطر إلى ملازمة فراشه في فيريولاميموم Verulamium، ولم يعد قادراً على عون نفسه، أو الدفاع عن مملكته ضد غارات برابرة المنطقة، ويقال بأن أعمال التدمير التي قام بها الانكليز(السكسون) قد امتدت إلى مسافات شاسعة، حتى أن المنطقة كلها لحقها التشعيث وغطى ذلك الجزيرة كلها من البحر إلى البحر، وسويت الكنائس المقدسة بالأرض، وأمام هذا تراجع رؤساء الأساقفة والأساقفة، وقد وجدوا أنفسهم معزولين والكنيسة المقدسة مشعثة، تراجعوا إلى أماكن أكثر أمانا، واتفقوا بالاجماع أنه من الأفضل تجنب غضب البرابرة لبعض الوقت، وعدم السكنى من دون ثمار بين أولئك المتمردين ضد الإيمان المسيحي، وكان بين هؤلاء القديس سامبسون، رئيس أساقفة يورك، وكان رجلاً لانظير له بالقداسة، وقد هرب، إلى أهل منطقته في بريتاني الصغرى(لأنهم كانوا من الأصل نفسه والمنطقة) وحمل معه الطيلسان الذي تسلمه من الحبر الأعظم الروماني، ولدى وصوله إلى تلك المنطقة استقبل بالترحاب من قبل بني قومه، وباجماع منهم كلهم انتخبوه إلى أسقفية

كنيسة دول، التي كانت قد حرمت مؤخراً من أسقفيتها، وتم الحصول على إذن الملك، فأجلس في تلك المرتبة، على الرغم من إرادته، وبقي في تلك الكنيسة بقدر ماعاش، وارتدى من بعد كثيراً من خلفائه دوماً ذلك الطيلسان الذي جلبه من الدير في يورك، لكن فيما بعد لم يعد ملوك تلك المنطقة يسمحون لأولئك الأساقفة، لأنهم امتلكوا لممالكهم رئاسة أساقفة، وصار هؤلاء دوما أساقفة مساعدين بشكل رسمي لكنيسة تور، ويقدمون الطاعة المتوجبة لرئيس أساقفة تور المتقدم ذكره، وبعدها قرر رؤساء الأساقفة، أنه لايجوز ثانية لأساقفة بريتاني الصغرى أن تكون لديهم رئاسة أساقفة سوى رئاسة أساقفة دول، وبعد مضي حقبة مقدارها ثلاثمائة سنة أو أكثر منذ ذلك التاريخ، حاول البابا نيقولا بناء على تحريض من رئيس أساقفة تور إزالة هذه الغلطة، فكتب رسالة إلى سليمان ملك البريطانيين، موجودة في مراسيم غراشيان Gratian: المجموع الثالث— القضية السادسة، وكان نص الرسالة كمايلي:

رسالة البابا نيقولا حول القضية نفسها

« هذا هو مرسوم أباك المذكور، وهذه هي شريعة الكنيسة أمك، والمسألة هي أنك بعثت جميع أساقفة مملكتك إلى رئيس أساقفة تور، وطلبت حكمه، لأنه هو رئيس الأساقفة، وجميع أساقفة مملكتك هم أساقفة مساعدين، وحسبما تظهر كتابات أسلافي بوضوح، فهم انتقدوا بشدة، أسلافك لأنهم سحبوا أنفسهم من الخضوع لرئيس الأساقفة ذاك، وكأن رسائلنا أيضاً إليكم حول هذه القضية كانت كما يبدو غير كافية» وقال في جزء آخر:« وبما أنه هناك خلاف شديد بين البريطانيين حول لمن تعود الأسقفية، وأن مامن انسان يتذكر بأنكم امتلكتم رئاسة أساقفة قط في منطقتكم، وإذا كان يرضيكم، فيمكنكم بسهولة فهم مصداقية كلماتي، بما أن الرب القدير قد عمل، سلاماً بينكم وبين ولدنا المحبوب، الملك شارل المشهور، لكن إذا ما عزمتم على متابعة المرافعة

والمحاكمة، اسعـوا لعرض القضية أمام كـرسينا الرسولي، فبقرار حكمنا يمكن أن يكون أكثـر وضوحاً معـرفة من منكما كـان قبل كنيسة رئـاسة الأسـاقفـة، وبذلك يتم نفي كل شك، وعلى أسـاقفتكم أن يعـرفـوا من دون تردد السبيل الذي عليهـم اتبـاعـه»، وعلى كل حـال لم يقم الملك المذكور التقـدير اللازم للتذكير المتقـدم ذكره، بل إنه أصر وخلفـائه على عـدم الطاعـة، وتابعوا الصراع، ووجـد عـدم الاتفاق بين أسـاقفـة تور ودول واستمر حتى السنة الحالية، كما ذكرنـا أعلاه، ووقتها تقرر بشكل حاسم من قبل البابا وجوب أن يكون أساقفة بريتاني كلهم، وليس فقط دول، خاضعين لرئيس أسـاقفة روان، وتحت إدارته القـانونية إلى الأبد، وتفوه البابا المذكـور بقرار حكمه النهائي حـول هذه القضية، وقد وقف بحكم كونه صاحب معرفة عالية، وجريئاً، وبارعاً— في الوقت نفسه— بالقانون، قائماً وتفوه كما يلي:« لتحزن دول، ولتفرح تور».

كيف أرسلت الملكة إليانور من أجل زواج السيدة بلانشي من لويس

عام ١٢٠٠م، فيه، عقد الملكان الفرنسي والانكليزي: فيليب وجون، مؤتمراً بعـد عيد القديســة هيلاري في مكان بين قلعتي غيلون Gaillon وبوتافانت Butavant ، فيه جـرى الاتفاق بين الملكين المذكـــورين، بناء على نصيحـة كبـار النبلاء في كـل مملكة، بأن يقترن لويس ابن الملك الفرنسي ووريثه، بابنة ألفونسو ملك قشتالة، التي كانت أيضاً ابنة أخت الملك جون، وأنه ينبغي على الملك الانكليـزي لدى عقد هذا الزواج أن يعطي إلى لويس، وذلـك بمثـابة حصـة زواج، وإلى ابنـة أختـه بلانشي، مدينة ايفروكس Evreux مع جميع تلك الكونتية، وإلى جانب ذلك ثلاثين ألف مـارك من الفضة، وعـلاوة على ذلك طلب الملك الفـرنسي من الملك الانكليزي أن يعطيه ضمانات بأنه لن يقـدم مساعدة لابالجنود ولابالمال، إلى ابن أختـه أوتو، في الحصول على الامبراطورية الرومـانية،

لأنه قد قيل بأن فيليب دوق سوابيا كان بالتفاهم التآمري مع الملك الفرنسي، وبمساعدته، يقوم بتهديد أوتو وايذائه بشكل خطير، ذلك أنه في الحقيقة لم يتوقف على إلحاق الضرر به، دون أن يعبأ بقرار الحرمان الكنسي الذي ربطه به البابا، أما المعاهدة المذكورة أعلاه بين الملكين، فقد جرى أخيراً تأكيدها، وقد عينا العيد المقبل للقديس يوحنا المعمدان لوضعها موضع التنفيذ، وبعد ارفضاض المؤتمر، أمل الملك جون أنه بهذا الزواج سوف يتمتع بسلام أطول، ولذلك بعث أمه الملكة إليانور، لجلب السيدة بلانشي المذكورة، حتى تعود هذه السيدة معها بأمان في الوقت المتفق عليه، وأبحر الملك الانكليزي في الوقت نفسه إلى انكلترا، وفرض ضريبة ثلاثة شلنات على كل هايد[فدان] من الأرض في جميع أرجاء انكلترا، وبعدما أنهى بعض الأعمال، عبر البحر ثانية إلى نورماندي.

زواج لويس من ابنة ألفونسو ملك قشتالة

عادت بعد هذه الأحداث بوقت قصير، الملكة إليانور، مع السيدة المتقدم ذكرها لتتزوج من لويس، وقدمتها إلى ملك الانكليز، وبعد هذا عقد الملكان مؤتمراً في الحادي والعشرين من حزيران في مكان بين غولتون Guletune وبوتافانت، خلاله أعطى ملك فرنسا مدينة ايفروكس وتنازل عنها إلى الملك الانكليزي مع جميع المنطقة والأراضي في نورماندي، والممالك الأخرى العائدة إلى الملك الانكليزي التي استولى عليها وتملكها أثناء الحرب، وقدم الملك جون على الفور الولاء إلى الملك الانكليزي من أجل هذه المناطق ثم قدمهم جميعا وتنازل عنهم إلى لويس بمثابة حصة زواج وكذلك إلى ابنة أخته، وتلقى الولاء من لويس من أجلهم، وفي اليوم التالي تزوجت السيدة بلانشي من لويس في بورتمورت Portmort في نورماندي، بوساطة رئيس أساقفة بوردوكس Bourdeaux ، لأن مملكة فرنسا كانت آنذاك تحت عقوبة الحرمان

من شركـــة المؤمنين بسبب الملكة بـوتيلدا Botilda [أنغلبورغ ابنة ملك الدانمارك]، التي طلقها الملك الفـرنسي، وبعد الزواج مباشرة، حمل لويس زوجتـــه إلى باريس، وسط السرور العـــام والفـــرح العظيم لدى رجال الدين والشعب في المملكتين.

كيف تزوج الملك جون من الملكة ايزابل

وحدث في العـام نفسه طلاق بين الملك الانكليزي وزوجتـه هاويسا Hawisa، ابنة ايرل غلوستر لأنهما كانا أقرباء في الدرجة الثالثة من قربة العصب، واقترن الملك المذكور، بناء على نصيحـة الملك الفرنسي بايزابل ابنة كونت أنغوليم Angouleme، وكانت من قبل زوجة هيوج، الذي لقبـه« لى برون» Le brun ، ايرل التخوم March، وكـان هذا الزواج مـؤذياً جـداً للملك الانكليزي، وكـذلك إلى مملكة انكلترا، وبعـد مضي وقت قصير من هذا عقـــد الملكان مـؤتمراً في فيرنون، وهنـاك قـدم آرثر الولاء إلى ملك انكلترا من أجـل بريتـاني ومن أجل ممتلكاتـه الأخـرى، ولأنه كـان مـايزال يخشى الخيـانـة من جـانب الملك جـون، مكث تحت رعاية الملك الفرنسي.

أمر من الرب وصل من السماء إلى القدس فيما يتعلق بمراعاة يوم السبت

ووصلت في هذه الآونة رسالة من السماء إلى القدس، وجرى تعليقها على مذبح القـديس سمعان في الجلجلة، حيث جـرى صلب المسيح من أجل خـلاص العالم، وجـرى تعليق هذه الرسـالة لمدة ثلاثة أيام وثلاث ليـــالي، والـذين رأوها انكبـــوا على الأرض يسألون الرحمة مـن الرب، ويتوسلون إليه ليريهم إرادته، وفي اليـوم الثالث، بعد الساعـة الثالثة من النهار، نهض البطريرك، ورئيس الأسـاقفة زكـريا من صلواتهما، وفتحوا العصبة الموجـودة فوق المذبح العـالي، وأخذوا الرسـالة المقدسـة للرب،

وبعد تفحصها، وجدوا مكتوب عليها:« أنا الرب، الذي أمركم بالمحافظة على يوم السبت المقدس، الذي فيه استرحت من تعبي، وأن جميع الفانين عليهم الاستراحة دوماً في ذلك اليوم، لكنكم لم تحافظوا عليه، كما أنكم لم تتوبوا من ذنوبكم، وكما تكلمت في انجيلي: « السماء والأرض سوف تزولا، ولكن كلمتي لن تزول»، ولقد أمرت بالتبشير بالتوبة في الحياة إليكم، ولكنكم لم تؤمنوا، ولقد أرسلت ضدكم الكفار، والشعوب الذين سفكوا دماءكم على الأرض، ومع ذلك مازلتم لم تؤمنوا، ولأنكم لم تحافظوا على يوم الرب المقدس، فقد عانيتم لأيام من المجاعة، ومالبث الرب أن أعطاكم الوفرة، ففعلتم بعد ذلك الأسوأ، ولذلك إن ارادتي تقضي أنه من الساعة التاسعة في يوم السبت حتى شروق الشمس من يوم الاثنين، ينبغي أن لايعمل أحد شيئاً، إلاّ ماهو جيد، وكل من يفعل ذلك سوف يثاب على ذلك، وإذا لم تطيعوا أمري هذا، أقول مؤكداً لكم، وأقسم بكرسي وبعرشي، وبالكروبيين الذي يحرسون كرسي المقدس، بأنني سوف لن أرسل لكم أية أوامر برسالة أخرى، بل سأفتح السموات، وعوضاً عن المطر سوف أمطركم بالحجارة، والخشب والماء الساخن، وذلك في الليل، حتى لايستطيع انسان تجنب ذلك، لأنني سوف أدمر جميع مقترفي الشرور، وإنني أقول لكم، بأنكم سوف تموتون الموت، بسبب اليوم المقدس للرب والأعياد الأخرى لقديسيّ التي لم ترعوها، ولسوف أرسل عليكم وحوشاً لها رؤوس الأسود، وشعور النساء، وذيول الجمال، ولسوف يكونون جائعين كثيراً إلى حد أنهم سوف يلتهمون أجسادكم، ولسوف تتمنون الهرب إلى قبور الأموات لإخفاء أنفسكم، خوفاً من هذه الوحوش، ولسوف أخفي نور الشمس، وأرسل الظلام عليكم، حتى لاتعودوا قادرين على الرؤية، ولسوف يذبح أحدكم الآخر، وسوف أشيح بوجهي عنكم، ولن أريكم رحمة، لأنني سأحرق أجسادكم، وقلوب الذين لايحافظون على اليوم المقدس للرب، وعلى هذا اسمعوا صلواتي،

خشيـة مـن أن أفنيكم من على الأرض بسبب اليـوم المقـدس للرب وابتعـدوا عن الشرور، وتوبوا من ذنـوبكم، وإذا لم تفعلوا ذلك سـوف تهلكون هلاك سـدوم وعمـوره، واعلمـوا أنكـم الآن بأمـان بفضل صلوات مـريم الأم الأعظم قداسـة، وبفضل ملائكتي المقـدسين الذين يصلون يومياً من أجلكم، ولقد أعطيتكـم القمح والخمرة بوفـرة، ومع ذلك إنكم لاتطيعوني، لأنكم يوميـا تجعلون الأرامل واليتامى يصرخون إليكم، ولاتظهـرون نحوهم أية رحمة، فلـدى الكفار مـرحمة وأنتم ليس لديكم، ولن أدع الأشجار التي تعطي الثمار تتجذر بسبب ذنوبكم، ولن تعطيكم الأنهار والينابيع المياه، فعلى جبل سيناء أعطيتكم شريعة، أنتم لم ترعـوها، أنتم رجال أشرار، لأنكـم لم تحافظوا على يوم الأحد المقـدس، الذي هو يوم قيـامتي، فلقـد استـوليتم على أملاك الآخـرين، وعـاملتم القضيـة من دون اهتمام وتقـديـر، ولهذا أنا سأرسـل عليكم أسـوأ الوحـوش، الذين سوف يلتهمـون صدور النساء، ولسـوف ألعن الذي يتصرف بشكل غير عـادل نحـو إخـوانه، وسألعن الذين يحكمـون بشر الفقـراء واليتـامى، وأنتم الذين قـد هجـرتموني وتبعتم أمير هذه الحيـاة، استمعوا إلى صـوتي ولسوف تتلقـون الرحمة، لكن مادمتـم غير متوقفين عن اقتراف الشرور، وعن أعمال الشيطان، وبقدر ماتستمرون في اقتراف الحنث باليمين والزنا، فـإن الشعـوب سـوف تحيط بكم، وتلتهمكم مثل الحيوانات المتوحشة».

تبشير يوستاس راعي دير فلي حول الوصاية المذكورة

ولدى تمعن البطريرك ورجـال الدين في الأرض المقـدسة في فحـوى هذه الرسالة، ونظروا إلى الكلمات باعجاب ممزوج بالخوف، فتقرر برأي الجميع تحويـل الرسـالة من أجـل الفحص والتقـدير مـن قبل الحبر الرومـاني، ذلك أنه يمكنه تقـرير ماالذي ينبغي فعله، وجلبت الرسـالة ووضعت أخيراً تحت الفحص من قبل مولانا البابا، وإثر ذلك تولى على

الفور رسم أساقفة أرسلوا إلى كل جزء من أجزاء العالم، للتبشير بمحتوى الرسالة وهدفها، وتعاون الرب معهم، وأيد خطاهم بوساطة معجزات نتجت عن ذلك، وكان بين هؤلاء راعي دير فلي Flaye وكان اسمه يوستاس، وكان متديناً ورجلاً متعلماً، حيث انطلق إلى انكلترا، وأشع هناك بعمله عدداً كبيراً من المعجزات، فقد نزل قرب مدينة دوفر، وبدأ واجبه بالتبشير في مدينة اسمها واي Wiففي جوار ذلك المكان أضفى مباركته على أحد الينابيع، فبفضل الفضائل التي نالها بمباركة من الرب، صار الحال أنه بمجرد تذوق تلك المياه فقط، استرد الأعمى بصره، والأعرج قدرته على السير، والأخرس المقدرة على الكلام، والأطرش استطاعة السماع، وكل انسان مريض شرب من المياه وهو مؤمن، تمتع على الفور بعودة الصحة، فاحدى النساء قد هوجمت من قبل الشياطين، وتورمت وكأنها مصابة بالاستسقاء، فقدمت إليه هناك، تنشد العودة إلى الصحة بوساطته فقال لها:« اطمئني يابنتي، واذهبي إلى النبع في واي الذي باركه الرب، واشربي منه، وهناك سوف تستردين صحتك»، وغادرت المرأة، ووفقاً لنصيحة رجل الرب، شربت، وتحولت على الفور لأن تكون قادرة على الغثيان، وأمام جميع الناس الذين كانوا عند النبع لاسترداد صحتهم، خرج منها علجومان أسودان كبيران، وقد تحولا على الفور إلى كلبين كبيرين أسودين، من أجل اظهار أنهما كانا شيطانين، وأخذا بعد وقت قصير شكل حمارين، ووقفت المرأة وقد علتها الدهشة، لكن مالبثت بعد وقت قصير أن ركضت خلفهما وهي مغضبة، راغبة بإلقاء القبض عليهما، وقام الرجل المعين ليكون مسؤولاً عن النبع، برش بعض الماء بين المرأة والوحشين، وإثر ذلك طارا في الهواء واختفيا، مخلفين وراءهما بعض آثار قذارتهما.

كيف تسبب راعي الدير المتقدم ذكره بتفجر نبع ماء عذب

ووصل رجل الرب هذا إلى بلدة رومسنيل Rumesnel ، ليقوم بالتبشير، وكان هناك نقص بالمياه العذبة في ذلك المكان، وبناء على طلب شعب ذلك المكان، قام فضرب بعصاه صخرة في الكنيسة هناك حيث تدفق الماء منها بوفرة، وكثيرون ممن شربوا من المياه شفيوا من أمراض متنوعة، ثم إنه تنقل من مكان إلى مكان، ومن مقاطعة إلى مقاطعة، ومن مدينة إلى مدينة، وأقنع كثيرين بالتخلي عن عادات الربا، وأقنعهم بحمل صليب الرب، وانصراف قلوبهم نحو كثير من أعمال التقوى، كما أنه منع الأسواق والمواصلات في أيام الآحاد، وهكذا فإن جميع الأعمال التي كان من المعتاد القيام بها في أيام الأحد، في جميع أرجاء انكلترا، جرى اعدادها للتنفيذ في واحد من الأيام التالية، أثناء الاسبوع، وبذلك استخدم أهل الإيمان راحتهم في أيام الأحد، لتأدية واجباتهم نحو الرب، وتمنعوا كلياً عن التعب في ذلك اليوم، لكن مع مرور الأيام، عاد كثيرون إلى عاداتهم القديمة، مثل عودة الكلاب إلى قيئهم، ومنع القسس والكهنة في الكنائس، مع الأشخاص الخاضعين لهم، من ابقاء المصابيح مشتعلة بشكل دائم أمام القربان، من أجل أن يتمكن الذي يعطي الضوء إلى كل انسان يأتي إلى هذا العالم، من إعطاء الديمومة إلى الضوء الدنيوي، وأعطى وصية إلى جميع أصحاب المراتب العليا، خاصة من التجار والمواطنين، بأن يكون هناك دوما على موائدهم صحن المسيح إلى الفقراء، فبأخذهم من وفرتهم المعتادة يمكنهم أن يرفعوا حاجات المحرومين ويزيلوها، كما أنه أمر عدّ يوم السبت من الساعة الثالثة مقدساً، ومنع جميع الأعمال فيه مثل يوم الأحد، وأيضاً جميع يوم الأحد والليلة التالية حيث يشكلان يوماً طبيعياً، وبهذا قدم رمزياً الرقود لراحتنا السرمدية.

معجزة مرعبة عملت على احدى النساء

في تلك الآونة نفسها، قامت مرأة من منطقة نورفولك Norfolk، على الرغم من تحذير رجل الرب، فذهبت في أحد الأيام لغسل الملابس بعد الساعة الثالثة من يوم السبت، وعندما كانت مشغولة بالعمل، اقترب منها رجل له مظهر مبجل، وغير معروف بالنسبة إليها، ولامها وسألها عن السبب في استخفافها هكذا وجرأتها، واقدامها على غسل الملابس بعد الساعة الثالثة على الرغم من حظر رجل الرب، فبعملها غير الشرعي هذا دنست يوم السبت المقدس، وعلاوة على هذا أضاف أنها مالم تتوقف على الفور عن عملها، فلسوف تجني بدون شك، على الفور غضب الرب، وانتقام السماء، غير أنها أجابت منتقدها بالمرافعة والتسويغ بوجود فقر مدقع، ولقد قالت بأنها حتى وقتها عانت من حياة تعيسة، بالتعب من هذا النوع، وأنها إذا توقفت عن عملها المعتاد، ستفقد بدون شك قدرتها على شراء وسائل عيشها، وغاب الرجل لبعض الوقت من أمامها، وجددت هي غسل الملابس وتجفيفهم بالشمس، بنشاط أكبر من ذي قبل، لكن مقابل هذا كله، انتقام الرب لم ينتظر، لأنه فوق البقعة نفسها، التصق خنزير أسود صغير على الجانب الأيسر من صدر المرأة، ولم يكن من الممكن، بأية وسيلة من الوسائل انتزاعه وازالته، بل استمر يمتص الدم ويسحبه، واستنفد في وقت قصير جميع القدرة الجسدية للمرأة التعيسة، وتحولت أخيراً إلى وضع، صارت فيه لحاجتها الماسة، مرغمة لوقت طويل، على التسول من أجل خبزها من باب إلى باب، وذلك على مشهد من كثير الناس، الذين دهشوا تجاه انتقام الرب، وقد أنهت حياتها تعيسة بموت بائس.

معجزة أخرى عملت على قطع رغيف من الخبز

وفي تلك الآونة نفسها، أمر أحد العمال في منطقة نورثأمبرلاند زوجته بصنع بعض الخبز في يوم السبت، من أجل أكله في اليوم التالي،

وأطاعت المرأة أوامر زوجها، وعندما في الغد وضعت الخبز أمام زوجها، وبدأت بقطعه، وقعت ساعتها حادثه هائلة ولم يسمع بمثلها، لأن دماً دافئاً تبع السكين وهي تقطع الخبز، وكأنه قد تدفق من حيوان قد ذبح للتو، وعندما وصل خبر هذه الواقعه إلى علم الناس، منعت كثيرين من العمل في ذلك اليوم.

كيف جرى حرمان غيوفري رئيس أساقفة يورك من جميع ممتلكاته

وفي هذه الآونة، جرى حرمان غيوفري رئيس أساقفة يورك— بناء على أوامر من الملك جون— من جميع أجور وتعويضات رئاسة الأسقفية، لأن جيمس عمدة يورك وأعوانه قاموا بالهجوم بعنف على قراءِ، وعلى ممتلكات رجال الدين والكهنة الآخرين، ثم اقتسموا جميع ممتلكاته، وبناء على ذلك تولى رئيس الأساقفة المذكور، حرمان جيمس المتقدم ذكره كنسيا بالاسم، وبشكل عام جميع الآخرين من مقترفي هذا العنف، وكان غيوفري قد أثار غضب الملك ضده وانزعاجه، وفي الحقيقة كان سبب غضب الملك منه له عدة أسباب، وكان أولها في المقام الأول عدم سماحه للعمدة المذكور أن يجمع من أسقفيته الضريبة من أجل استخدام الملك، مثلما سمح بذلك في جميع أرجاء انكلترا بشكل عام، وكان ثانيها بسبب عدم مرافقته الملك إلى نورماندي، لإقامة حفل الزواج بين لويس وبين ابنة أخته، ولعقد اتفاق مصالحة مع الملك الفرنسي، وثالثا بسبب حرمانه كنسيا للعمدة المذكور، ولوضعه جميع كونتية يورك تحت الحرمان من شركة المؤمنين.

تتويج الملك جون والملكة ايزابيل في لندن

وفي هذا العام، بعدما قام الملك جون بتسوية أموره على الجانب الآخر من الماء، عبر إلى انكلترا جالبا معه زوجته، وفي الثامن من تشرين

أول نزل في دوفر، ثم إنهما قدما بعد هذا إلى لندن، حيث جرى تتويجهما معا في وستمنستر من قبل هيوبرت، رئيس أساقفة كانتربري، بحضور نبلاء الملكة، وكان غيوفري رئيس أساقفة يورك الذي كان قد تصالح مع الملك، حاضراً في هذا الاحتفال، وفي هذه الآونة، بعث جون رسالة أيضاً إلى وليم ملك الاسكوتلنديين للقدوم إليه إلى لنكولن، في اليوم التالي لعيد القديس إدموند، حتى يرضيه بالنسبة إلى حقوقه في انكلترا.

حياة القديس هيوج أسقف لنكولن قبل حصوله على الأسقفية

وقدم في هذه الآونة هيوج أسقف لنكولن، صاحب الذكرى الطيبة، من القارة، ذلك أنه هوجم من قبل حمى الملاريا، في الهيكل القديم في لندن، فأنهى حياته السامية بموت رائع في السادس عشر من شهر تشرين الثاني، وكانت أحاديثه المقدسة أثناء حياته، كلها تعليمات للناس للأخلاق، ومثلاً للأعمال الجيدة، وهذا يرغمنا على اقحام أشياء قليلة حوله في أعماله، فقد ولد هذا الرجل المقدس في منطقة نائية في بيرغندي، وكانت أخلاقه أكثر نقاء من أسرته، وكان شديد الانصراف والمتابعة للآداب منذ صغره، وعندما كان في العاشرة من عمره عهد به إلى رهبان نظاميين ليتعلم العلوم اللاهوتية، وقد تعلم بينهم في ميدان كل من الأخلاق والعلوم، وبعد امضاء ستة عشر عاماً في القلاية، حصل على وظيفة رئيس رهبان، وسارت جميع الأمور وهو في هذا المنصب بشكل مزدهر معه، ثم إنه قرر أن يضع مراقبة أشد على آلام الجسد الخطيرة، وبأمر من الرب، ذهب إلى طائفة الرهبان الكارثوشيين Carthusian، وأظهر نفسه بينهم لطيفاً ودمثاً تجاه الجميع، وظل مع ذلك مخفياً جديته الدينية، ولذلك بعد مضي وقت جرى تعيينه مديراً للبيت كله، ومع مرور الأيام، وعندما جرى تأسيس بيت للرهبان الكارثوشيين في انكلترا من قبل الملك اللامع هنري ملك انكلترا، الذي كان يتحرق رغبة إلى رفع شأن قضية الرب، استجاب لتوسلات ذلك

الملك، ليصرف انتباهه إلى ادارة ذلك البيت، وبعدما جرت دعوته لتولي رئاسة الرهبان، جعل همّ دراسته الأول يوميا زيادة قداسته السالفة، ولهذا ولأحاديثه المقدسة نال حظوة عظيمة لدى الملك، الذي غالبا ماتمتع بالحديث معه، وكان الملك قد وضع بين يديه كنيسة لنكولن، التي كانت قد حرمت منذ عدة سنوات من عناية أسقف يتولاها، ولكي يكفر عن هذا الذنب، بقدرما يستطيع حصل على التعيين بوساطة الانتخاب للرجل المتقدم الذكر، أي هيوج، ليكون حاكماً لتلك الكنيسة، وفيما بعد عندما تمّ الاعلان عن انتخابه لرجل الرب، أجاب أنه لن يقبل بذلك المنصب، أي وظيفة الأسقفية، مالم يتم التوضيح له تماما أنه تولى ذلك بوساطة الموافقة الجماعية لكنيسة لنكولن، وذلك مع موافقة رئيس الرهبان الكارثوشيين، وبعدما جرى اقناعه بالنسبة لهذه النقاط، قدم عميد لنكولن مع شيوخ تلك الكنيسة إلى رجل الرب، وحصل بعد الاجتماع الأول بهم على تقديرهم إلى حد أن يكون أسقفهم وأباهم الروحي، بتقوى وعواطف مخلصة، ولكي تكون موافقتهم أكثر تأكيداً، جعلوه يعرف بأنهم انتخبوه هناك، وقام هو بناء على ذلك باعلامهم للمرة الأولى بالموافقة على ذلك، وبعد ذلك، بعدما جرى تكريسه، وفي الليلة الأولى التي نام فيها في أسقفيته، سمع بعدما صلى بخشوع صوتاً يقول له:« لقد مضيت أنت نحو سلامة شعبك وإلى السلامة مع المسيح».

فضائل الرجل المقدس في أسقفيته

جعل عبد الرب هيوج المكرس كنيسته تشع بفضائله، ووجه الناس وعلمهم أن يتخذوه مثلا لهم وفعل ذلك بالقول والعمل، وأظهر بأن اسم أسقف حقاً لائق به وجدير، ووضع أيضاً أشخاصاً منتخبين في الكنيسة التي بناها، وجعلها هيكلاً من خلال الأحجار الحية، وصدّ هو بشكل مستمر هجمات القوى العلمانية في القضايا المتعلقة بالكنيسة،

ذلك أنه أظهر أنه لايعبأ بالمخاطر المتعلقة بممتلكاته أو جسده، وبهذا المنهج حقق تقدماً كبيراً حيث استرد كثيراً من الحقوق، كانت قد ضاعت، وحرر كنيسته من أقسى أنواع العبودية، وبالاضافة إلى هذا، اعتاد رجل الرب على دخول بيوت المجذومين من الناس، التي كان يمر بها، وكان يقبّل جميع المصابين بالجذام، مهما كانوا مشوهين، ويضفي عليهم الصدقات بكرم، وحول هذا، حاول وليم، صاحب الذكرى الطيبة، الذي كان مستشاراً للكنيسة نفسها، أن يجرب ويعرف فيما إذا كان عقله قد تأثر وأصيب بالعجرفة، بسبب ذلك، فسأله:« لقد شفى مارتن بقبلاته المجذوم، وأنت لم تشف المجذومين بقبلاتك»، فأجابه الأسقف على الفور قائلاً:« شفت قبلة مارتن جسد المجذوم، لكن قبلة المجذوم شفت روحي»، وبالنسبة لدفن الموتى، قام بواجباته الانسانية بيقظة تامة، ولم يهمل جسد أي ميت، اعتقد أنه قد عهد إليه القيام بواجبه نحوه، ومرة عندما كان هذا الرجل المقدس يقوم بواجب العناية برعيته، وكان وقتها يزور احدى الأبرشيات، وكان بين الأماكن التي زارها بلدة اسمها الكموندبري Alcmundeberi، حيث قدم إليه أبوان لأحد الأطفال، ومعهما طفل صغير لهما كان بدون حياة تقريباً، وهما يبكيان وينشدان مساعدته، ولدى سؤال الأسقف لهما ماذا يريدان، أجابته أم الطفل قائلة:« أخذ هذا الطفل الصغير بيده قطعة من الحديد طولها أكثر من انش وكذلك سماكتها، وكما يفعل الأطفال وضعها في فمه، غير أنه ابتلعها، ومضت سريعاً في بلعومه، وهي الآن تقتل الطفل، وبناء عليه ياأبانا المقدس، لقد أرسلك الرب كي تعيد إلينا طفلنا، الذي هو الآن على حافة الموت، ونظر الأسقف نحو الطفل، ولمس لسانه، وقرأ مباركة، ونفخها عليه، وبعدما رسمها بعلامة الصليب، أعاده إلى والديه، ولدى أخذهما له من الأسقف قفزت قطعة الحديد خارجة وكلها دماء، وشفي الطفل من تلك الساعة، وفي مناسة أخرى، عندما كان الرجل المقدس يمر خلال بلدة اسمها كستريهنت Cestrehunte

جاء إليه أقرباء أحد المجانين، الذي كان مرغماً منذ ثلاثة أسابيع على الحبس مغلولاً ورجوه أن يزوره ويباركه، ولدى سماع ذلك ترجل الرجل المقدس من على فرسه، وذهب إلى الرجل المجنون، الذي كان رأسه مربوطا إلى عمود، ويداه ورجلاه مربوطون كل على حده إلى أوتاد، وبارك الأسقف بعض الماء الذي كان قد جلبه معه، وعندما مدّ الرجل المجنون لسانه، وكأنه يريد أن يسخر منه، رش بعض الماء عليه، ثم قرأ على الرجل المجنون جزء الانجيل الذي فيه:« في البدء كانت الكلمة»، وبعدما أعطاه مباركته غادر، وبعدما ذهب، بدأ الرجل المريض بالنوم، وعندما أفاق عاد إلى وضعه الصحي المتقدم، وحدث في هذه الآونة أن كان هذا الرجل التقي في لنكولن، يساعد في أعمال عمارة الكنيسة الأم هناك، التي بناها بشكل فخم من الأساسات، وبينما كان يحمل حجارة وملاط في وعاء على كتفيه، كما كانت عادته بالغالب، وصل إليه رجل أعرج بالرجلين، وكان يتوكأ على عصاتين، ورجاه بالحاح أن يحمل الوعاء نفسه، آملاً في أن يسترد العافية إلى طرفيه بفضائل هذا الرجل المبارك، وحصل أخيراً على إذن معلم العمل بإعطائه الوعاء، وشرع وهو يتوكأ على عصاتيه يحمل الحجارة والملاط فيه، هذا وحدث بعد عدة أيام انقضت أن تخلى عن العصاة الأولى، ثم مالبث بعد ذلك أن تخلى عن الثانية، وبعد مضي وقت قصير صار قوياً، ومناسباً لحمل الوعاء نفسه في العمل في الكنيسة، من دون الاتكاء على أي عصا، وبعدما صار وضعه صحياً تماما أحب ذلك الوعاء كثيراً، وأعلن أنه لن يتخلى عنه مطلقاً، وحدث مرة أخرى في المدينة نفسها، أن أحد السكان أصيب بالجنون، إلى درجة أنه جرى تعيين ثمانية رجال يكونون مسؤولين عنه، وقد حبس بالأغلال ذلك أنه أصيب بجنون وصل إلى درجة أنه هدد بتمزيق زوجته وأولاده إلى قطع بأسنانه، وحمل أخيراً، وهو مربوط داخل عربة إلى رجل الرب، الذي ماأن رآه حتى رش عليه على الفور الماء المقدس، وأمر الروح الشريرة بالخروج منه،

وأن لاتزعجه أكثر من هذا، ووقع الرجل المجنون فجأة على الأرض، وكأنه رجل كان يموت، وصب الرجل المقدس الماء المبارك عليه بكميات كبيرة، ونهض بعد ذلك على الفور الرجل المجنون، ورفع يديه المربوطتين نحو السماء، وقدم الشكر للرب، وإلى الكاهن المبارك، وبناء على ذلك فكت أغلاله، وذهب في حال سبيله رجلاً معافى، وأيضاً كانت هناك امرأة في لنكولن لديها ولدين، أصيب أحدهما وهو مايزال طفلاً بتورم كبير في جنبه، وخافت أمه على صحته خوفاً كبيراً، فذهبت إلى هذا الأسقف المقدس، وحصلت على وعده بمباركة ابنها، وبناء على ذلك وضع الأسقف يديه، على الجزء المريض، وباركه ثم أرسله في حال سبيله، وبعد ذلك اختفى التورم، ومنذ تلك الساعة لم يعد يزعج الطفل، كما أن أمه لم تعد ترى أي أثر منه، وحدث في وقت آخر أن هذه المرأة نفسها، أخذ ابنها الآخر يعاني بشكل شديد من اليرقان، وقد تذكرت ملازها السالف، فحملته إلى أمام الأسقف المبارك ليبارك من قبله، وهذا أيضاً بعد تلقيه المباركة، عاد إلى وضعه الصحي المتقدم، وحدث ذلك خلال ثلاثة أيام.

كيف غادر القديس هيوج هذه الحياة

ومع نهاية العام الرابع عشر من أسقفيته، لدى عودة الأسقف المقدس هيوج إلى انكلترا من البيت الرئيسي لطائفة الكارثوشيين، حيث كان هناك بزيارة لرئيس الرهبان وللرهبان في ذلك البيت، وذلك بناء على رغبتهم الطويلة، وقتها وقع مريضاً بشده بحمى الملاريا، وكان ذلك في الهيكل القديم في مدينة لندن، وهناك جاء الملك جون لرؤيته، وقبل أن يتركه أكد وصيته، وذلك بناء على تشجيع من رجل الرب، ووعد بحق الرب، أنه في المستقبل سوف يقر الشهادات المعقولة للكهنة، ومع أن مرضه ازداد كل يوم ترسخاً، لم يسمح، بناء على نصيحة أي انسان، بأن يضع جانباً، ولو لوقت قصير، الثوب الصوفي الذي ارتداه

دومـا، وقـد أصر، مع اقتراب مـوته، على المحـافظة على النظام القـاسي لطائفة رهبان الكارثوشيين، وبناء على دعوة من الرب، غادر حياته هذه وهو سعيـد، وعندمـا حمل سكان لندن جسـد الرجل المقـدس لدفنه في لنكولن، وقعت حـوادث رائعـة، فالمشـاعل الذي أشعلت أمـام الجسـد لدى مغـادرة لنـدن، ظلت تشتعل طوال أيام الرحلة الأربعـة، لذلك لم يكونوا في أي وقت من دون ضـوء واحـد من المشـاعل، مع أن الأنواء كانت سيئة بشكل غير معتاد، وذلك بسبب الرياح والأمطار، ومن هذه الأحوال، لم يكن هناك مـن شك، بأن الرب قد هيأ ضـوءاً دائماً لروحه، لأنه تقديراً منه لجسـده، لم يسمح للضوء الموقت بالانطفاء، ولقـد مات عبد الرب هيوج، أسقف لنكولن في سنة ألف ومـائتين لتجسيد الكلمة، وكانت وفاته في السابع عشر من تشرين الثاني.

كيف جرى حمل جسد القديس هيوج إلى لنكولن لدفنه

في الحادي والعشرين من تشرين الثـاني، التقى جـون ملك الانكليـز، ووليم ملك الاسكوتلنديين في مـؤتمر مع بعضهما بصحبة جميع النبـلاء، ورجـــال الديـن والعلمانيين من المملكتين، وعلى الرغـم من نصيحـــة الكثيرين، دخل الملك جـون إلى مـدينة(لنكولن) بجـرأة، الأمـر الذي لم يتجـرأ أحـد من أسـلافـه على محاولتـه، ولدى وصـولـه إلى الكنيسـة الكاتدرائية، قـدم كأساً ذهبياً على مذبح القـديس يوحنا المعمدان، الذي كان في البناء الجديد، الذي أنشأه من الأساسات، القديس هيوج المتقدم ذكره، والتقى في اليوم نفسه هو وملك الاسكوتلنديين، على رابية خارج المدينة، وهناك قـدم الملك وليم الـولاء للملك جـون أمـام جميع الناس، من أجل جميع حقوقه، وأقسم فيما بعد بحضور جميع نبلاء المملكة، يمين التبعية له، على صليـب هيوبرت رئيس أسـاقفة كانتربري، وعـاهده على الاخلاص له بالنسبة للحيـاة وسلامة والأعضاء والشرف الأرضي، وفي ذلك اليوم وصل جسـد الأسقف هيوج الأكثر قـداسة، إلى هناك لدفنه،

وذهب الملكان لاستقباله، وكان يصحبهما ثلاثة رؤساء أساقفة هم: هيوبرت رئيس أساقفة كانتربري، وغيوفري رئيس أساقفه يورك، وبرنارد رئيس أساقفة راغوا Ragua ، وثلاثين أسقفاً، وايرلات، وبارونات، وكهنة بلا نهاية، وقد استقبلوا جسده الأعظم قداسة، وتسلموه، وقام الملكان نفساهما، والايرلات والنبلاء، بحمله على أكتافهم إلى القاعة في الكنيسة الكاتدرائية، وعند باب الكنيسة استقبله رؤساء الأساقفة الذين تقدم ذكرهم مع الأساقفة، وجرى حمله من قبل هؤلاء الأساقفة إلى السدة، حيث ظل راقداً باحترام طوال الليلة، وكان هذا الأسقف قد اعتاد خلال أيام حياته، على القيام بكل نشاط بواجباته الانسانية في دفن الموتى، ولم يهمل قط دفن جسد أي ميت، رأى من واجبه حضوره والقيام به، ولهذا السبب، فإن الرب الذي يعرف كيف يكافىء فضائل المستقيمين، بجزاء مناسب، قد سمح له بمثل هذا الدفن المتميز، حتى بدا أنه يكافئه بالتشريف لفضائله المتقدم ذكرها، وحدث على كل حال أنه قبل الدفن لرجل الرب هذا، وبينما كانت طقوس الجنازة آخذة مجراها لدفنه، وكان هو نفسه— كما جرت العادة بالنسبة للكهنة العالون— ممدداً غير مغطى، وهو يرتدي القلنسوة على رأسه، والقفازان في يديه، والخاتم باصبعه وذلك مع بقية الزينه الحبرية، قدم أحد الجنود وكان معروفاً من قبل الرهبان النظاميين للكنسية، وكانت ذراعه متآكلة كلها بوساطة الجذام حتى العظام، وظهرت وهي مجردة من اللحم والجلد، فوضع ذراعه فوق جسد الأسقف، وبلل وجهه مراراً بالدموع ليتولى شفاء ذراعه المريض، وعلى الفور تمّ استرداد اللحم والجلد برحمة من الرب، من خلال فضائل قديسه، ولهذا عاد الجندي يحمد الرب، والأسقف المقدس، وغالبا ما أظهر نفسه لشماس الكنيسة، ولأشخاص موثوقين آخرين، وقدمت في الوقت نفسه امرأة، كانت فقدت بصرها باحدى عينيها منذ سبع سنوات، فاستردت بصرها على مشهد من الجميع ودهشة منهم، وقام في الوقت نفسه نشال، في

وسط ضغط الناس الذين تجمعوا حول عبد الرب، فانتشل حافظة نقود احدى النساء، ولكن بفضل الأسقف المبارك، الذي أظهر أنه لم يكن ميتاً بل حياً، اشتبكت يدا اللص الشرير، ويبست أصابعه، وثبتت على كفه حتى أنه لم يعد قادراً على امساك السلعة التي سرقها، فألقاها على أرض الكنيسة، وبدا وكأنه مجنون، وصار بعد ذلك هدف المقاطعة من الناس، وهكذا بعدما تعذب بالروح الشيطانية لمدة طويلة، جاء بذاته ووقف من دون حراك، ثم إنه بدا يبكي بحرقة، وقام على مسمع من الناس جميعاً، فاعترف بجريمته الدنيئة إلى جميع الذين أصغوا إليه، وعندما لم يجد سبيلا للنجاة، التفت نحو الكاهن وقال:« ارحمني، ارحمني، أنت يارفيق الرب، لأنني تخليت عن الشيطان وعن أعماله، الشيطان الذي كنت حتى الآن عبداً له، وصلّ للرب من أجلي حتى لايصدني في توبتي، بل أن يعاملني برحمة»، وفور تلفظه بهذه الصلوات للرب، انفكت أغلال الشيطان التي كانت يداه مربوطتان بها، وعاد صحيحاً شاكراً للرب وللأسقف المبارك.

دفن القديس هيوج

وبعد انقضاء السهر المطلوب على جسد الأسقف، وفي ظل ضوء اليوم التالي، قام رؤساء الأساقفة والأساقفة المتقدم ذكرهم، بعدما أنهوا القداس في الكنيسة الجديدة، التي كان هو نفسه قد بناها تشريفاً لأم الرب، فأودعوا بشكل لائق الجسد المقدس في القبر، قرب مذبح القديس يوحنا المعمدان، وتولوا القيام بواجبه بشكل متميز بدا وكأن الرب قد جمعهم من أجل هذه الغاية الخاصة، وقد دفن في الرابع والعشرين من تشرين الثاني، واستمرت المعجزات تعمل عند قبره، للذين طلبوهم، وسعوا إليهم مؤمنين، فبعد موته الرائع، كان هناك طفل من منطقة لنكولن نفسها، وكان مريضاً منذ خمسة عشر يوماً، وقد حمل مع ازدياد قوة المرض عليه ووضع أمام بيت الميت فأصبح جسده

فجأة متيبساً، وكأنه قد مضى على موته عدة أيام، ولدى رؤية ذلك، قامت احدى النساء وكانت واقفة بجواره، باغلاق عينيه، وبوضع يديه ومدّ أطرافه كما هي العادة مع الميت، وبعدما تمدد على هذه الصورة منذ صراخ الديك حتى صباح اليوم التالي، اقتربت أمه— التي حتى وسط دموعها لم يمت إيمانها مع ولدها — من الجسد بثقة، وأخذت بيدها خيطاً مما يصنع منه فتيل الشموع، وقاست به جسد ابنها من جميع الجهات، وقالت بعد ذلك وهي واثقة وفي وسط الدموع:« إنه حتى ولو دفن ولدي، بإمكان الرب إعادته من خلال فضائل القديس هيوج»، ومع مرور النهار، صلوا وقدموا صدقات لصالح روح الطفل، وبعثوا وراء الكاهن ليتولى دفنه، مع أن أمه استمرت تصرخ معارضة ذلك، وقبل وصول الكاهن الذي بعثوا خلفه، اكتشفت الأم، التي كانت قلقة من أجل الحفاظ على ابنها، الحياة فيه، وبناء عليه مجدت الرب، والأسقف المبارك، الذي إلى فضائله عزت هذه المعجزة، وليكن في عرض هذه الأمور المتعلقة بحياة رجل الرب كفاية، وذلك من بين كثير من الأمور المتعلقة بهذه المسائل.

ظهور خمسة أقمار

وفي هذا الشهر نفسه، وقبل وقت قصير من عيد الميلاد، وفي حوالي الساعة الأولى من الليل، ظهرت خمسة أقمار في السماء، وظهر الأول في الشمال، وظهر الثاني في الجنوب، وظهر الثالث في الغرب، وظهر الرابع في الشرق، وظهر الخامس في وسط الأربعة مع عدة نجوم من حوله، ودار القمر الأخير مع النجوم التي رافقته حول الأقمار الأخرى، خمس مرات أو أكثر، واستمرت هذه الظاهرة لحوالي الساعة، الأمر الذي أدهش جميع الذين شاهدوا ذلك.